رواية

الأبواب القديمة

خليل فاضل



روايـة

الأبـــواب القديمـــة

كتبت عام ١٩٨٤

خليل فاضل

الفهرس

الفصل الأول

الخـــــروج

زمت متاعي وأمري وقررت أن أترك أرض الـوطن بصفة مؤقتة، مدركاً أن مدة البقاء خارجه لا تحدد بـزمن وإنما بهدف. كانت خطتي شبه واضحة... أن أسلك طريقـي إلى أوروبا لعمل الدراسات العليا في الطب، هذا الطريق يمر عبر دولة عربية مصدرة للبترول كي أحصل علـى تـأمين المعيشة وثمن التذاكر.

فرشت أوراقي على سرير الفندق في الغرفـة التـي أجرتها وبقيت فيها مع زوجتي الهام لحين الحصـول علـى التصريحات اللازمة للخروج، كان أبي يشـجعني بحـرارة، كانت أمي متحفظة، وكانت زوجتي قلقة من مسألة سـفري بمفردي في البداية لعدم ثقتها بمسألة إمكانية اللحاق بي.

حضر والدي ووالدتي من بنها واستقرا بغرفة مجاورة، لم يكف أبي عن إسداء النصائح، ولم تكف أمي عن البكاء.

تيممت شطر المطار، مررت بالإجراءات المعتادة، بان أبي وأمي وزوجتي من شرفة التوديع، كان أبـي مخطـوف اللون يحاول أن يبدو سعيداً، كانت أمـي مخنوقـة بالـدمع، وكانت زوجتي تنتحب. لوحوا جميعهم، كنت أمضـي إلـى

الطائرة وكأنني أسير في جنازة عسكرية، غير أن في داخلي كان هناك شيء تواق للطيران خارج أرض الوطن... كانت مصر هي كل عالمي، ولم أصدق قط أن هناك عالماً آخـر على الرغم من دروس الجغرافيا ونشرات الأخبار كان هناك إحساس بالذنب يملؤني لأنني ظننـت أن بإمكـاني أداء دور لتحسين الأوضاع في مصر، ولكي أتعامل مع هذا الإحساس القوي بالذنب عكفت على محاولات الاتصال بأقطاب العمـل الوطني، أو من رأيتهم أوصياء على مسيرتي، كنت أحـس بالجرم وكنت واثقاً انه إحساس يشاركني فيه معظـم أبنـاء جيلي، لربما كان إحساسا بالرفض مقنعاً بصـورة الـذنب، إحساساً بتجاهل الوطن الأم لاحتياجاتك، وكأنها مصر بعـد كل هذا العمر تنبذك أو تدعوك خارجها، إحسـاس عنيـف ساهم في ضآلتي وفي أن أبدو صغيراً، أبناً، تلميذاً..

مررت بمكاتب المحامين الاشـتراكيين، واحـداً تلـو الآخر، ضحك أحدهم عالياً قائلاً

ـ لا عليك... لا تهتم.. لا تنسى أن ترسل لنا مبلغـاً من المال كل حين.

فيما بعد تذكرت أنني لا أعرف لمن ولمـاذا وكيـف

سيرسل هذا المبلغ؟

مررت بمكتب محامٍ آخر، لاقـاني بجسـده النحيـل وابتسامته العذبة، لم يتحدث في شيء، اكتفى بـالقول بـأن تصحبني السلامة، كان يقطن الزنزانة التي بجـواري وقـت أحداث الطلاب في أوائل السبعينات، كان يأكل الخبز المقدود واللبن الزبادي، ولما سحبت إدارة السجن الحشيات والسرائر من الطلاب رفض هو سريره، احتج وخلع ملابسـه، كنـت أنظر إليه من خلال فتحة باب الزنزانة، أقرأ عليه أشـعاري فيبتسم، كان من أنبل المشاركين في الحركة الوطنية، كـان صدوقاً وصبوراً، ولعل كان هذا سر اكتفائـه بـالقول بـأن تصحبني السلامة.

عرجت على صحفي يعمل بجريدة »الأهرام«، لم تكن صلتي به قوية، غير أنى كنت مواظباً علـى القـراءة لـه، دعاني أنا وزوجتي إلى غذاء بكافيتريا »الأهرام« في الدور الأخير، احتسينا الحساء الساخن، طالعنا وجه القاهرة الباسـم الوضاء، قال الصحفي:

ـ لقد اخترتما الوقت المناسب لترك مصر، نحن على أبواب أحداث كبيرة.

مسحت فمي من آثار الطعام الطيب، ولم أفهم ما يعني إلا بعد أن رحلت.

***

نزلت من باب الطائرة إلى أرض مطار أبـي ظبـي، كان زمن الرحلة منسياً، هناك التقيت بصديق قديم أخذني إلى منزله وشرح لي كل الظروف الملابسة للعمل في الخليج.

نجحت في الحصول علـى شـقة وشـراء الأثـاث والمستلزمات بسهولة، مضى عملي بالمستشفى كنائب جراحة في يسر، تقدمت بدعوة زوجتي التي كانت حامل في شهرها السادس لفحتها حرارة الجو، تأملت ما حولها في حذر، سوياً دخلنا إلى معترك الحياة في الخليج نحاول أن ننصـهر فـي بوتقتها فتدفعنا خارجها، نحاول الابتعاد عنها فتشـدنا إليهـا بأوصال غريبة... كان عندي ظمأ غريب للتعرف على كـل مصري هناك، لدرجة أني كنت أقحم نفسـي علـى العمـال المصريين المصابين أثناء العمـل، أداويهـم، أعقـد معهـم صداقات خاصة، أدعوهم إلى منزلي وأجالسهم فـي أمـاكن إقامتهم.

جاء حسن إلى قسم الطوارئ يحمل يده اليمنى فوق يده

اليسرى والدم يسيل في قطرات متلاحقة، عرفت منـه انـه يعمل نجاراً في ورشة حديثة، نجحت فـي خياطـة طـرف إصبعه الذي قطعه المنشار الكهربي، حرصت على أن أغير على جرحه بانتظام، وجدتني أدمن لقاءه، لكني وبعد فترة أنه مختلف وأنه يعيش في عالم أناني غريب، أنه انتهازي مـع أقرانه، وأن حلمه بالعودة إلى مصر مقرون بأفعال مفزعـة، انسحبت من العلاقة في هدوء ووجدتني أمام عبد الغفار بقسم الجراحة، ميكانيكي أصاب محرك السيارة يده بجرح غـائر حجزت له سريراً، ضمدت جراحه وراعيته، حتـى تماثـل للخروج فدعاني إلى مكان إقامته... ووجدتني أخطـو إلـى البيوت القديمة الكائنة خارج أبى ظبي، وكأنني أدخـل إلـى حي شعبي بالقاهرة، استقبلني زملاء عبد الغفار بالترحـاب والشكر، شربت معهم الشـاي، اسـتمعت إلـى نـوادرهم، حرصت على لقائهم بانتظام، وكلمـا عـرفتهم اكثـر كلمـا أحسست بنوع من التناقض الغريب ينمو في داخلـي، علـي أبحث عن صورة وردية لعامل يرتـدي أوفـرول، يتسـاقط عرقه على جسده ليعول أسرته، لا العامل الذي يحلم بالسيارة البيجو ليسيرها على ارض مصر...

توغلت هذه العلاقة إلى حد الاصطدام بالمقاولين وتجار العملة، وما كان إلا أن التقيت بمرزوق الذي كان يعمل في محل لتركيب الزجاج بوسط البلد، كانت واضحة على وجهه آثار حرق قديم، طلب الدخول إلى المستشفى لعمل جراحة تجميل... حضر إلى منزلي جلس قبالتي، احتسى الشاي، وساد بيننا صمت طويل، كنت أدور ببصري في توتر أبحث عن الكلمات والأمور التي من الممكن أن نتشارك الحديث فيها، ولكن قتلنا الصمت حتى جاء إلى المستشفى، أبلغته بقرار المستشار الجراح برفض إجراء عملية التجميل لأنها رفاهية لا يملكها الأجانب في الخليج، نظر إلي في هدوء ممل، رحل، ولم أره بعدئذ

***

كنت أعمل بقسم الجراحة، كان الخوف يملأ قلوب الجراحين من المسؤولية التي قد تقع على كاهلهم إذا أخطئوا، وفي حدود معرفتي فانه يجب أن يكون للجراح قلب أسد، غير أن الإحساس بالغربة والمراقبة، توتر الهجرة والعمل، أكل الأسود في قلوب الجراحين.

أتت سيارة الإسعاف بشاب سوري في الثلاثين من

عمره عقب حادث سيارة، أدركت في التو أنه يعاني من نزيف داخلي، وأن الأمر لا يحتاج إلا لفتح بطن، كان الجراح مصرياً قادماً من بريطانيا طويل يحني هامته وهو يتكلم، همست في أذنه:

ـ المريض محتاج عملية استكشاف فوراً ندخله العمليات؟

ابتسم في حرج ورد قائلاً:

ـ لا... أعطه نقل دم.

كان الدم المنقول منزوف في الداخل وفي خلال الساعة مات الرجل وترك خلفه زوجة وولدان. غير أن جراحاً واحداً كسر القاعدة، كان قليل الحجم ويأتي من باكستان كان يلتذ ببتر الأطراف وتجريب العمليات الكبرى، لم يحاول أحد التشكيك فيه لأنه كان يرطن بالإنجليزية بلباقة غير معهودة، ولأن أبيه كان سفيراً ببريطانيا، ولأنه أوحى للجميع أنه الوحيد الذي لا يخاف، الوحيد الذي يملك قلب أسد.

كان علي أن أساعده في إحدى العمليات التي قرر أن يبتر فيها ساق رجل مصاب بالغرغرينا، ولما كان علم

الجراحة يرشدنا إلى بتر الساق المصابة بعد الجزء المصاب بقليل، سأل أحد الطلاب الجراح الجريء كيف أنه سـيعرف الجزء الحي؟ لم يرد الجراح وعمل بمقصه في عضلة الفخذ الرئيسية فانهمر الدم غزيراً، أمرني بأن أجففه وابتسم مجيباً الطالب: هكذا نعرف أنه حي؟...

قام بنشر عظمة السابق، وقعـت السـابق المبتـورة المريضة في يدي، أحسست بخوف رهيب، اهتزت أطرافي، ضاقت بي غرفة العمليات... قـررت لحظتهـا أن اعتـزل تخصص الجراحة وأن أحاول دراسة الطب البـاطني ففيـه اهتمامات تفوق نافورات الدم.

مشيت إلى رئيسي وهو جراح فلسطيني شاب، لأخبره عن عزمي الاستقالة والسفر إلى بريطانيا، قال:

ـ أنت حر طبعاً، لكن انتظر قليلاً ستسمع في الإذاعة عن المعجزة التي سأقوم بها.

قام الجـراح العبقـري بتقطيـع أوصـال المـريض الفلسطيني المصاب بسرطان متفش في الحق والرئتين، كنت أعرف أن العلم يقول ارحم للمريض وللنـاس وللجميـع أن يموت بمرضه على أن يموت بمبضع جراح يتوه في الجسد

الإنساني، وبالفعل عكف زملاء الجراح على نصحه بعدم إجراء العملية، غير أنه كان يريد أن يصنع تاريخاً فأقام مجزرة على طاولة العمليات، صرخت لها الممرضات، وعندما مات المريض بعد ست ساعات من عذاب الجروح لم يبك عليه أحد، ولم يدفنه أحد، فدفنته المستشفى في مقابر الغرباء. قابلني رئيسي الجراح في أحد الممرات.. واجهته قائلاً:

- لقد أخطأت في حق نفسك وفي حق المهنة.

ولم يمهلني لحظة وقام بنقلي إلى مستشفى آخر.

كنت حالماً نائماً متوهماً، أحاول قراءة الحركة الوطنية على أرض الواقع في مصر ففشلت وتهت، حاولت ترجمة المفهوم الطبقي للعمال على أرضية العاملين في الخليج فضعت في نوادرهم وأحلامهم، كنت أبحث عن فلسطين القلب، القضية، في مؤتمرات المنظمات المختلفة، في سلوكيات الأفراد العرب على كافة أجناسهم، كنت أدلف أكثر وأكثر إلى سراديب وهمية، أتخبط بين جدرانها، تضربني وطاويط سوداء، تنقرني حدآت جارحة، لعلي كنت أبحث عن نفسي وقتذاك فلم أجدها.

الفصل الثاني

العمل في بريطانيا

ميت بتذاكر الطائرة والشيكات السياحية على مكتب القنصل البريطاني بـالخليج طالبـاً تأشـيرة دخول لزيارة بريطانيا، كانت أسئلته متلاحقة ودقيقـة، كـان يحاول الغوص إلى أعماقي وسبر غوري علّه يجد ما يوحي بأنني ذاهب للبحث عن عمل، كذبت وقلت إنني ذاهب للنزهة لاختصار الوقت والمجهود ولتأمين الحصول على التأشـيرة. وأخيراً حصلت عليها، حملت حقائبي مصطحباً زوجتي إلهام وطفلينا، حلقت بنا الطائرة. وانتابني شعور غريـب، هـو مزيج من الخوف والرغبة في اكتشاف المجهول... ومـا أن حطت بنا الطائرة في مطار هيثرو حتى انتبهنا إلى أننا فـي عالم مختلف تماماً في عاداته، طباعه، ولغته...

أمضينا حوالي شهرين ننتقل من فندق إلى آخر، مـن فندق إلى بنسيون، وأنا ضائع في دوامة البحث عـن عمـل يتيح لي فرصة التدريب والدراسة، وأخيـراً نجحـت فـي الحصول على وظيفة بمستشفى نائي، كانت تقلبات الطقـس مفزعة ومزعجة، كنت أسير حوالي ١٥ دقيقة إلى عملـي، ورغم حيطتي واستخدامي لكافة الوسائل التي تحفظ الـدفء بدءاً من المعطف الصوفي الواقي من المطر إلـى المظلـة

السوداء القوية... كان الحمالون العاملون بالمستشفى يمضون بسياراتهم في الطرق المبللة مشفقين علي، بعضهم على غير العادة يتأثر لحالي فيوصلني إلى مقري، وهناك في المستشفى امسح عني آثار العواطف، ارتدي البالطو الأبيض وأبدأ فـي المرور على المرضى مع رؤسائي.

كنت مندهشاً لجهلي بتفاصيل اللغة الإنجليزية وطريقة نطقها، كنت أعتبر نفسي متفوقاً في هذه اللغة، لـذلك فلقـد انتابني إحساس عميق بالإحباط حينما ووجهت بصعوبة فهمي وتفهمي لمن حولي خاصة الممرضـين والمرضـى. حتـى انقضت الستة أشهر مؤذنة بموعد تقييمي وتحديد صـلاحيتي واستمراري.

توجهت إلى مقر اللجنـة المكونـة مـن رؤسـائي، واجهوني بأمور كانت غريبة علي، صدموني بقولهم إن لـم أعد النظر في سلوكياتي فلا فرصة لتمديد عقدي، انتقـدوني بشدة لاحترامي البالغ لهم، قالوا لا داعي لإفسـاح الطريـق لكبيرهم، ولا داعي أيضاً للتبرم من صغيرهم حينما يضـع قدميه على الطاولة مشهراً حذاءه في وجهي، قالوا أنى إنسان طيب لكن حساس.

وفي خلال أسابيع استطعت أن ألوي سلوكي، أن أكون بارداً فظاً قليل الاحترام وعرفت فيما بعد أن ما مررت بـه يسمى بالصدمة الحضارية... وما أن جنيت بعض الخبرة في مواجهة الأمور وتعريف الحالات حتـى بـدأت الاسـتذكار والتحضير لامتحان شهادة الزمالة الباطنية، الهـدف الكبيـر الذي حضرت من أجلـه، كانـت الأمـور بالغـة القسـوة والصعوبة، كنت أقرأ صفحة المرجع الطبي في ساعة متعثراً بين قواميس مختلفة لم تكن قادرة على إفادتي بالمعنى الـذي أريده... صارحت أستاذي بأنه إذا استمرت الأمور على مـا هي عليه فعلي أن أصرف النظر عن الاستذكار والامتحان. سقط قلبي وغاص في قدمي. حاولـت التركيـز والانتبـاه، حضرت مناهج دراسية مختلفة، اشتريت شـرائط الكاسـيت لتحسين التفوه بالكلمات، حرصت على شراء الجريدة اليومية لالتقاط الكلمات الإنجليزية الدارجة التـي مـن الممكـن أن تفيدني في الحوار اليومي... حتى تمكنت من الحصول على الجزء الأول من زمالة الباطنة بعد ثلاث محاولات، كان هذا النجاح كاسراً لحاجز الخوف الرهيب، ومضى شبح الفشـل يتواري في البعد، كان علي أن أتقدم إلى وظيفـة أخـرى،

بمعنى آخر أن أترقى، تقدمت إلى إحدى المستشفيات القريبة من لندن... وتم قبولي، قالوا لي في المقابلة:

ـ أهلاً بك... إن لدينا أخصائي مصري يعمل هنا منذ سنوات في الحقيقة أنتم شعب يحب الشغل ويتفانى فيه.

بعد يومين من استلامي العمل قدمتني السكرتيرة إلـى الأخصائي المصري د. واصف حبيب، كان طويل القامـة، ممتلئ الجسد، ملامحه صعيدية خالصة، وجهه اسمر وشعره أشيب، كان حريصاً على إظهار الثروة في كل شيء، ملبسه، نظارته الطبية، كذلك فلقد كان مشهوراً باقتناء الذهب مـثلاً في قلمه الحبر وساعته ومشبك رابطة العنق... ابتسم وحياني بالإنجليزية، أخذني إلى جانب بعيداً عن السكرتيرة وسـألني باللهجة المصرية:

ـ أهلاً.. إنت جاي تشتغل هنا ليه؟ إيه هو هدفك على المدى القصير والبعيد؟

فاجأني السؤال، نظرت إليه مستغرباً ثم قلت:

ـ جئت للعمل هنا، وللتحضير للجزء النهـائي مـن شهادة الزمالة.

قال بسرعة:

- أيوه عارف، عارف، اقصد بعد التخرج، ستتجه إلى فين؟

قلت وأنا ما زلت مندهشاً:

- ربما توجهت إلى بلد عربي، كطريق إلى مصر... هدفي النهائي هو العودة إلى مصر.

تأملني في دهشة فاقت دهشتي وقال:

- إنت مجنون؟ ترجع مصر.. ترجع مصر تعمل إيه؟ ترجع للتراب والإهمال والتخلف؟

كنت قد ضقت ذرعاً بالحديث فأجبته:

- ومن أين خرجت أنت، وإلى من تنتمي؟

لم يتوقع ردي وسالي بهذه الحدة، فقال:

- أنا هنا من عشرين سنة، انـدمجت فـي المجتمـع تماماً، لا يمكن أتخلى عنه مطلقاً.

صرخت فيه قائلاً

أي مجتمع؟

هز رأسه مجيباً:

- المجتمع الإنجليزي طبعاً... زي ما أنت عارف أنا هنا أخصائي كبير وكمان ماسك إدارة المستشـفي، وعنـدي

عيادة في وسط البلد، في هارلي ستريت، أساساً لعلاج العرب.

قلت:

- آه.. يعني تعيش مع الإنجليز وتقتات من العرب...

أحسست أنه قد ضج بكلامي، حاول تغيير الموضوع قائلاً:

- على فكرة... ما تنساش، لازم أقدمك للدكتور فايق الغندوري، مبعوث على حساب شركة متعددة الجنسيات بتبني مستشفيات خاصة في مصر، لدراسة الأمراض الباطنية.

- إن شاء ا .

ومضى كل منا إلى حال سبيله، التقيت فيما بعد بالدكتور الغندوري، فدعاني أنا وأسرتي إلى زيارتهم، وعندما حللنا ببيته لم يتوقف للحظة عن الحديث عن د. واصف، عن علمه وكرمه، وكيف أنه قد رعاه عندما حضر إلى لندن، شرح لي كيف حمل له خطاب توصية من مدير الشركة الأجنبية... استطرد في حكاياته بدون توقف، عرفت منه أن د. واصف كان مبعوثاً على نفقة الجيش أيام عبد

الناصر غير انه تخاف عن البعثة رغم حصوله على الشهادة، قال كذلك إن ثمة محكمة عسكرية قد حكمت عليـه غيابيـاً بالإعدام على أتساس اعتبار ذلك هروباً من الخدمـة إبـان حرب ٦٧. استطرد د. الغندوري القول محاولاً إفهامي كيف كان د. واصف شهماً، سهل له العمل في بريطانيـا بـدون امتحان كفاءة، قدمه للأخصائيين الإنجليـز... وكيـف أن د. الغندوري تولى بعد ذلك ـ على طريقتنا ـ دعوة الإنجليـز المهين إلى مآدب عشاء مصرية بذلت فيه سـامية زوجتـه جهداً كبيراً علقت هي على ذلك بقولها:

ـ تصور.. تصور يا د. أمين، أتحول مـن صـحفية ناجحة إلى طباخة للإنجليز؟

ابتسمت محاولا تهدئة خاطرها غير أنهـا بـادرتني بالقول بأنها سعيدة بالحياة هنا لأن الفلوس كثيرة، وأن زوجها يتقاضى مرتبين، واحد من وزارة الصحة البريطانية وآخـر من الشركة الأجنبية، بجانب علاوات كثيرة للدراسة والكتب والتنقل.

صمت وحملقت في أشكال البساط المختلفـة، انتبهـت فجأة حينما سألني د. الغندوري:

- هو إنت مش ناوي تفتح عيادة في هارلي ستريت واللا إيه؟

أجبت بسرعة:

- هو انا يعني كنت خدت الشهادة؟ وبعدين أنا قلت للدكتور واصف ان انا ناوي ارجع مصر، ربما مروراً ببلد عربي..

قال د. الغندوري وهو يضحك عالياً:

- البلاد العربية سجون كبيرة، ومصر مش زي زمان، وأنت لا عندك قيد بأرض أو بجيش أو خلافه... إيه اللي يمنعك من القعاد هنا..

بلعت ريقي ثم قلت:

- انا قلت لك على نيتي بصراحة، لكن ممكن تقولي لي ليه الإلحاح على السؤال ده؟

- بصراحة... انا مش هخبي عليك... د. واصف خايف من منافستك له... بيقول الخوف يكون دايماً من الشباب أصحاب ا لأفكار الجديدة.

ظهرت علي إمارات الدهشة البالغة، نظرت إلى وجهه المبتسم دائماً وقلت:

ـ في الحقيقة كلامك ده مفاجأة لي... لكنه بـلا شـك هيخليني أفكر...

كان د. الغندور مشغولاً بابنه الوحيد، الذي ولد له بعد خمس بنات، كان يحمله على كتفيه وعلى ذراعه، يحضر به الشاي، يرد به على التليفون، كانت بنات الدكتور الغنـدوري تصيح وتبكي، وكان هو يصرخ في زوجته آمرا إياها بحـل المشاكل، وبإخراج الفطير من الفرن، وبالرد علـى طـارق الباب، ولما أوشكت الزيارة على النهاية قمت مـن مقعـدي جامعاً أولادي، صافحته وقلت:

ـ هه إنشاء ا تزورنا...

ـ قال وهو يضحك في عصبية:

ـ هم ما قالولكش واللا إيه؟... انا بتنقل بتاكسي، في مصر كنت بتحرك بسيارة بسواق مخصوص، هنا يـا إمـا اركب مع سواق المستشفى في عربية نص نقل رغـم ان ده ما بيليقش بمكانتي... أو في أيام ثانية بيوفروا لي تاكسي... يمكن يهمك تعرف السبب، انا عندي عقدة من السواقة، خوف مرضي وا يا دكتور.

***

في أحد الأيام دعتني حكيمة القسم للحضور على عجل لرؤية مريضة كان د. الغندوري قد رآها في الصباح الباكر، عندما كان مناوباً، كانت غارقة في بحيرة من الدماء، وفـي حالة يرثى لها.. قمت بفحصها وتحويلها إلى قسـم الرعايـة المركزة وسألت الحكيمة إن كان د. الغندوري قد فحصـها، نظرت إلى وجهي باستغراب ثم قالت:

ـ لقد شك في ان النزيف مهبلي، قال انه لا يفحـص النساء، فسألته ان يقيس ضغط الدم، فقال افضـل ان تقيسـه الحكيمة، ولما سألته أن يحولها لغرفة الإنعـاش قـال كلهـا نصف ساعة ويحضر طبيب القسم ويعمل اللازم.

حضر رئيس القسم الإنجليزي، غضب بشدة لما حدث وطلب مني كتابة تقرير عما حدث، تـم التحقيـق وانتهـى بتوجيه اللوم، بعدها ساءت علاقتـي بالـدكتور الغنـدوري، التقيت به في اجتماع الأطباء لمناقشة طلـب تقـدم بـه د. واصف نيابة عن إدارة المستشفى لتخفيض الأجر المـدفوع لساعات العمل الزائدة، كان هناك إجماع على مواجهة هـذا الأمر، شذ عنه د. الغندوري، كان واضحاً أنه يدافع عـن د.

واصف بكل حرارة حتى دخلنا إلى قاعة الاجتماع.

بدأ د. واصف الاجتماع بحديث غاضب عـن حالـة التمرد في مستشفاه.. استوقفته قائلاً:

ـ إنها مستشفى وزارة الصحة البريطانية.

رمقني في غضب حاول دفع مشروعه بأي شكل غير ان الرسالة الوحيدة التي تلقاها من جميع الأطباء كانـت (إذا اقتربت من قرش واحد من قوت أولادنا، فسنأكلك أكلاً).

***

كنت مفتوناً بالديمقراطية الإنجليزيـة، وكنـت أتـابع جلسات البرلمان نقد الصحف، الإذاعة، التلفزيون... كنـت أحس بالأمان وأنا أمارس هذه الديمقراطية، وه نحن نمارس حقوقنا النقابية في قوة.د. كنت سعيداً بها.

***

أصدر د. واصف أمراً إلى كـل السـكرتيرات بعـدم التعامل معنا وبعدم طباعة أية نشرات أو تعليمات على الآلة الكاتبة.. كنا قد نجحنا في فرض تعليماتنا الخاصـة بالعمـل الليلي والمناوبات، وما كان عليه سوى الرضـوخ إلـى أن تحول الأمر برمته إلى مجلس الأخصائيين الأعلى، دعيـت

لحضور اجتماع المجلس كممثل للأطباء الصـغار... وفـي صباح اليوم المحدد اتصل بي د. واصف في الصباح الباكر، كنت أدرك أنها محاولة لاحتوائي، لهذا تخلصت منـه فـي هدوء، وقبيل الاجتماع اتصلت بي سكرتيرته راجية ان أحدد اجتماعاً منفرداً معه غير إنني كنـت مصـمماً علـى عـدم التصالح مهما كلفني الأمر.

***

في المجلس جلس الجميع حول المنضدة المستديرة، بدأ الرئيس الاجتماع مشيراً على د. واصف بأن يبـدأ... ولمـا استرسل وجده حديثه مختلف تماماً عن موقفه السابق فها هو يركز على الحوافز والتشجيع الأدبي والمـادي والإجـازات الدراسية، ولم يذكر شيئاً عن الأجور... بالطبع بـدت علـي الدهشة الشديدة، ولما كان موعد كلمتـي واجهتـه بأكاذيبـه وطلبت منه توضيحاً للوي الحقائق وتغيير الموضوع، أنكـر بشدة قائلاً ان ما عرضه كان مجرد مشروع ثبت خطأه..

قلت: إن د. واصف للأسف يتعامل بعقليـة عسـكرية متزمتة، وأنه لا يفهم معنى الديمقراطية وممارساتها.

كان قد سجل أقوالي أولاً بأول بقلمه الـذهبي الفخـم،

قلت أيضاً:

ـ إن هناك تصوراً عاماً لدى الدكتور بأنه يعمل لخير المستشفى في حين انه يعادي الأطباء الصغار. القوة الحقيقية المسيرة للعمل.

ولما انتهيت من حديثي عقب أحد الأخصائيين الذين لا أعرفهم قائلاً:

ـ د. أمين يستحق التهنئة على شـجاعته فـي إبـداء الرأي أياً كانت وجهات نظرنا مختلفة.

ثم انبرى أخصائي إنجليزي ذو شارب ضخم وملامح متعكرة، كان صديقاً للدكتور الغندوري ومن ضيوف عشائه المستديمين، لكنه كان عدواً للدكتور واصـف حيـث كانـا يتنافسان في مجال العمل الخاص، قال:

ـ انا لا ادري سر هذا الجو العام من "البارانويا" هـذا الإحساس العام بالإضطهاد، إن د. أمين يحـرض الأطبـاء الصغار على ما يسمى بنيل حقوقهم منذ أن بدأ العمل معنـا، أنني لا أرى في سلوكه إلا تعدياً على حرمة رؤسائه، إننـي أطالب بوقف هذا الهذر فوراً.

صمتْ، بلعت ريقي، حتى حان موعد التصويت، وجاء

القرار بالأغلبية بإبعاد د. واصـف عـن شـئون الأطبـاء، وبتسيير الأمور على ما هي عليـه، واعتبـرت فـي ذلـك انتصاراً، خرج د. واصف منهزماً مجنباً النظر إلي تماماً... لم أفق من نشوة النصر المباح إلا حين استلمت خطاباً مـن الإدارة الصحية يقول:

(نشكرك على خدماتك لنا طوال هذا العام. بناءاً علـى اجتماع مجلس الأخصائيين الأعلى السـري، تقـرر إنهـاء خدماتك بعد شهرين).

أحسست بمرارة شديدة في حلقي، تثاقلـت خطـواتي، كانت الهزيمة قاسية جداً، كنت أعرف ان فـرص مواصـلة حرب شعواء متاحة علـى الـنمط البريطـاني... ان أهـدد بالإضراب عن العمل، أن أنشر بالتفصيل أخبار التفاوتـات المهنية والسلوكية في المستشفى، لكنني أدركت ان هذا لـيس بمتاح حين دعاني رئيسي الأخصائي الإنجليزي إلى مقابلته، قال لي:

ـ دعني أهمس في أذنك يا أمين، أنت متزوج وعندك أولاد، احرص على مستقبلك، أبحث عـن وظيفـة أخـرى وسنعطيك شهادة معقولة، لكن إذا تمردت فلسـوف يمـرغ

الجميع رأسك في الوحل... هل تعلم ان د. واصف يعتقد انك تعمل جاسوساً لحساب المخابرات المصرية؟

بانت علي الدهشة الشديدة، بلعت ريقي المر، قـررت ان استسلم، اجتمعت بمندوب النقابة الطبية البريطانية العامة، صارحته بالأمر كله، وضعت بين يديـه كافـة المسـتندات والوثائق، تأملني للحظة ثم قال:

ـ الصراع ممكن يا دكتور لكني أنصحك بالهدوء.

قلت: لكن أين هي الديمقراطية التي تتغنون بهـا فـي بلادكم؟

قال: من تغنى بها... انتم.. معشر الأجانب تغنيتم بها، نحن نعرف حقيقتها، ونعرف حدودها، نحن عمليين للغاية، لم تخدعنا فقط أية أوهام...

قلت: إذن فهي محض غواية.

قال: اعتبرها أي شيء، المهم، أتمني لك حظاً سـعيداً في الحصول على وظيفة أفضل.

***

وفقت في الحصول على وظيفة مماثلة في بلد مجاور، غير أنى كنت متوتراً، منتظراً تصديق المجلس الطبي العـام

على انتقالي..د. التقيـت والـدكتور واصـف عنـد بـاب المستشفى، مد يده مصافحاً وقال:

ـ أنا دائماً أنصح المصريين ألا يتعاركوا مع بعـض في الغربة.

قلت: إذن فأنت تعتبرها غربة؟ غريبة، اعتقدت انك قد اخترت هنا وطناً؟

قال وهو يدير وجهه الناحية الأخرى:

ـ نعم هنا وطني؟

قلت: ومصر؟

رد: كن واقعياً يا دكتور، هل أحب حفنة من تراب، أنا بمجرد نزولي من الطائرة اتنشق الوسخ والتراب، وتغمرني الضوضاء والإهمال...

(عرفت فيما بعد ان الحكم الصادر بالإعدام علـى د. واصف قد ألغي بعد وفاة عبد الناصر بسنوات مما أتاح لـه فرصة زيارة مصر).

قلت: وهل وطن الإنجليز خال من المساوئ؟

قال: إنها مساوئ تناسبني.

قلت: عموماً حصل خير، فرصة سعيدة.

هز رأسه وهو ماض في اتجاه سـيارته السويسـرية الذهبية اللامعة الضخمة وقال: لا... لم يحصل خيـر، لقـد اهتزت صورتي بشكل لم يحدث من قبل.. اسمع لو فكـرت في فتح عيادة في هارلي ستريت، لو سال لعابك للمرضـى العرب، لو شطح خيالك بدخول الإمبراطوريـة مـن بابـه الواسع فسنخرجك من ثوبك، سنقطع أوصالك ، ونشنقك على اكبر صاري في الهايدبارك.

قلت ضاحكاً: لا تنسى يا د. واصف أنني قـد أكـون متخابراً عليك.

ضحك عالياً جداً، حتى غطى صوته علـى ضـجيج السيارات وأبواق عربات الإسعاف وقال:

ـ زيارة مصر الأخيرة بددت وساوس كثيرة، مصـر تغيرت، المؤسسات الجديدة، المستشفيات الحديثـة تبـاركني لمساعدة مبعوثيها الفاشلين الذين يحضرون إلى هنا للدراسة.

انطفأ مصباح السيارة فجأة، ولولت سيارات الإسعاف والنجدة محضرة مرضى ومصابين، سرت انا فـي الاتجـاه الآخر متأملاً المشهد في صمت.

الفصل الثالث

القـاء

اتجهت إلى الملكية الباطنية... وصلت في المساء، كانت السماء تمطر بغزارة، كنت أحمل حقيبتي متحركاً في بطؤ شديد كأنني أهرب من الصقيع الخارجي إلى مناجاة داخلية علّها تشع بعض الدفء.

ثقلت يدي اليمنى بالحقيبة، فبدلتها إلى يدي اليسرى، مسحت البلل من على نظارتي، عدلت من وضع قفازي، لهثت، مضيت متثاقل الخطى حتى وصلت إلى ساحة التسجيل وقفت في الصف الذي يضم عشرات الأطباء من كافة الأجناس، أكثرهم من الهنود، بدت كذلك بعض الوجوه العربية والإفريقية، وأخرى من جنوب شرق آسيا... تفحصت الوجوه التي بان عليها إرهاق السفر، وحينما أتى دوري فقمت بتسجيل اسمي والبلد الذي حضرت منه، وعند انتهائي التفت إلى الخلف إلى لندن لحضور منهج دراسي تنظمه جامعة لندن للتحضير للامتحان النهائي لزمالة كلية لندن كي أعود أدراجي... وفوجئت بوجيه أمامي، وجيه زميلي القديم الذي لم أره منذ عشر سنوات، كان الزمن قد بدا عليه، وبدت عليه أيضاً آثار بلاد الفرنجة، فها هو يرتدي قبعة رمادية اللون على جانبها ريشة بنية حمرة، وها هو

يطلق ذقنه في حذر كأدباء الإنجليز، مرتدياً معطفاً من الصوف الإنجليزي الرخيص ويضع في فمه غليوناً قديماً.. للحظة لم يخرج من تأمله للمكان والناس، لم ينتبه لوجودي.. ولما لاحظ أنني قد توقفت أحدق فيه، تعرف علي، وجدتني احتضنه وأقبله غير عابئ بالتقاليد الإنجليزية وغير عابئ بنظرات الهنود والأجناس الأخرى، تركته ثم احتضنته مرة أخرى، ضحكت ضحكة مجلجلة صائحاً.. يا ابن الكلب!

ضحك هو ضحكة مكتومة، بانت آثار التجاعيد واضحة على جبهته، كان حاجبيه معقودين بشكل دائم، امتلأ جسده وبات من الواضح أنه يتحدث ببطيء، يسير ببطيء، ويبتسم في مرارة، كان هناك شيء كبير مفقود فيه... الحماسة، الإرتعاشة، البهجة، الصياح، المواجهة، التحدي، العنف.. كلها أشياء ماتت فيه، كان مهزوماً منطفئاً كالعائد من الميدان خاسراً فرصة النصر... ابتسم وقال: خير... خير يا أمين بتعمل إيه هنا؟

ضحكت مرة أخرى بصوت مرتفع، استرسلت في حديثي باللغة العربية رغم أننا قد صرنا محط أنظار الجميع، قلت:

ـ وأنت... بتعمل إيه هنا؟ بتحضر لـنفس الشـهادة؟ أنت مقيم هنا؟

أومأ بالإيجاب، أعطاني رقم غرفته، وتواعـدنا علـى لقاء بعد انتهائه من التسجيل.

***

كنت أسير مسرع الخطى إلى غرفته، تواقـاً لمعرفـة أخباره، مستعجلاً لقائه بأي شكل، طرقـت البـاب، فصـاح بالإنجليزية:

ـ نعم.

ولما عرف أنني الطارق امرني بالدخول... ابتسـمت في غبطة شديدة، بادلني إياها بهزة من رأسه الـذي غـزاه الشيب، امسكت بذراعه ونحن جالسين على طرف السـرير، وقلت:

ـ ياه... زمان... من زمان قوي ما شفتكش، أخبارك إيه؟

خرج صوته من حنجرته عميقاً متأنياً:

ـ ابداً... أنا هنا في البلد دي من عشر سنوات، بعدما خلصت الامتياز مباشرة.

سألته في لهفة:

- وأخبار فاتن إيه؟ اتجوزتم؟

بدت عليه الدهشة لجهلي ثم أجاب:

- أربع سنوات من المعاشـرة كشـفت لـي أبعـاد شخصيتها الهستيرية، كان من المستحيل نتجوز، تحول حبها إلى كره عميق، بقت تطاردني طلباً للزواج لكني رفضـت، حضرت إلى صالحة التوديع يوم خروجي وبصقت علـي... قدام أبويا وأملي اللي انزعجوا بشدة وأكدوا انها بنت سـوقية وأنهما عمرهما ما ارتاحا لعلاقتي بيها من بدايتها.

قلت:

- لكن يا وجيه... دا نتم عشتم قصـة حـب عميقـة وطويلة، كنتما عاشقان للفنون المسرحية، كنتمـا فـي كـل مسرح، في كل عرض، في كل اجتماع، لدرجة أن شـوارع القاهرة ضحكت بيكم، ضج بيكم مقهى ريش وأتيليه القـاهرة للأدباء والفنانين، كنا نعرف ان فيه بعض الاختلافات لكـن ماحدش كان يتصور أبداً أنكم تنفصلوا...

ابتسم ثم عقب قائلاً:

- أرجوك... أرجوك يا أمين ده موضوع قديم جـداً،

مافيش داعي لفتحه.

سألته:

واتجوزت من إنجليزية؟

قال:

في الحقيقة أنا عايش مع صديقة إنجليزية مـن فتـرة، أعتقد أن الزواج لا يناسبني.

قلت مازحاً:

ـ وإيه رأيك يا عم في الإنجليزيات؟

رد بسرعة:

ـ منفتحات، مدربات جنسياً بشكل يؤدي أحياناً إلـى استنفاذ طاقاتهن من سن ١٥ سنة إلى سن ٢٥.

صمت هنيهة ثم بادرني بالسؤال:

ـ وإنت... أخبارك إيه؟

ـ اتجوزت، اتجوزت قبل ما أخرج من مصر.

ـ مين؟

ـ الهام... الهام زميلتنا، فاكرها؟

ضحك عالياً وقال:

ـ طبعاً... لكن دا انتم شخصيتين مختلفتين تماماً هي

تقليدية في طباعها ومزاجها، عملية وغير طموحة، ومن أسرة محافظة جداً وإنت إنسان غريب الأطوار طموح جداً، جامح، مجنون، حالم، إزاي سمح أهلها بزواجها من وغد زيك؟

ضحكت عالياً لملاحظته التي أخرجته للحظة من عالمه وعادت به إلى الخاف عشر سنوات. سألته:

ـ ويا ترى رحت مصر كم مرة؟

ابتسم نصف ابتسامة وقال:

ـ ولا مرة، انا هنا من عشر سنوات، وما اعرفشي أي شيء... حتى أمي بعتت لي أكثر من مرة عشان أتصرف في حتة الأرض اللي باسمي لكني ما اتزحزحتش.. هيه... أطلق من صدره تنهيدة عالية، ثم قام واقفاً قائلاً:

ـ تعال نقوم نتعشى

خرجنا من الباب الحديدي إلى ساحة الجامعة، لفحنا الهواء البارد المحمل برذاذ المطر الذي لم يتوقف، تمشينا حتى المطعم، حملنا الصواني الخاصة، جلسنا قبالة بعضنا نأكل طعام الإنجليز المسلوق، قلت:

ـ والنبي ما وحشتكش الطعمية؟

قال:

يعني يا سي أمين المسألة حبكت ع الطعميـة؟ كلهـا مشوار لميدان البيكاديللي في قلب لندن وتاكل فول وطعميـة وشاورمة وطرشي كمان.

قلت:

- ما أقصدش طعمية لندن يا وجيه... انا اقصد الجو الشعبي المصري.

نظر إلى طبقه، انشغل في المضغ ولـم يجـب علـى تعليقي.

لم ألتق به إلا في مساء اليـوم التـالي بعـد انتهـاء المحاضرات.

***

قال وجيه:

تعال نتمشى في الحدائق المنبسطة خلف الجامعة

سرنا كقطين أليفين، تلفحنا البـرودة وتمتـد أمامنـا الأرض الخضراء منداة بالمطر الذي لم يتوقف، سـرنا فـي الممرات البلاط التي تخترق البساط الأخضر، انعطفنا باتجاه الكاتدرائية الضخمة والتي كان يعلوها صليب ذهبـي عليـه

تمثال لطائر ذهبي، مشينا بجوار سورها الضخم حتى وصلنا إلى أريكة خشبية ذات لون أخضر كابي، جلسنا متجـاورين شاردين ننظر إلى أسفل التل، وإلى أضواء البلدة التي بانـت من البعد كعناقيد الذهب.

التفت وجيه إلي وقال في جدية:

ـ ممكن أأتمنك على سر يا أمين؟

دفعني الفضول إلى تعديل جلستي حتى صرت قبالـة، غير انه لم يعدل من جلسته، ظل كما هو ناظراً إلـى أسـفل التل، محدقاً في أضواء المدينة، قلت:

ـ السر ف بير يا أمين.

صمت هنيهة ثم قال:

من مدة مش قصيرة، اكثر من سـنة، تعرفـت علـى البنت اللي عايشة معايا الآن، هي الوحيدة اللـي اسـتهوتني بحيث فضلنا سوا طول المدة دي، كل علاقاتي السابقة كانت مبتورة، فجة، مجرمة، علاقات تستطيع ان تقول عنها إنهـا شبيهة بعلاقتي بفاتن ـ مع الفارق ـ البنات الإنجليزيات ما عندهمش صبر المصريات، ما تمتدش بهن علاقـة شـائهة أربع سنوات حتى تنتهي بشكل درامـي ـ كـل مـا كـان

يستغرقه الأمر شهور لا اكثر وتتبخر العلاقة... لكـن مـع (آن) حسيت بإحساس مختلف، مزيج من المسئولية والتقـدير فهي ذات حس مرهف رقيقة وفقيـرة... بتعمـل أخصـائية اجتماعية بمعهد للصم والبكم، لذلك كانت قادرة اكثر من أي إنسان على فهم وترجمة لحظات صمتي الطويلة، أستطيع ان أؤكد أني حبيتها، وأني بحبها، لكن... لكنها بتجبرني علـى النوم معها وكلبها في الغرفة، وأنا أمقت الكلاب يا أمين...

ضحكت علياً مقاطعاً إياه قائلاً:

ـ عارف، عارف ده كويس، ماحدش من دفعتنا ينسى يوم ما خرجت إنت وفاتن تجروا من خاف معامل الكيميا لما مر بيكم كلب الحارس...

لم يعقب واستطرد في روايته قائلاً:

ـ المهم عرفت ان الكلب عزيز عليها قـوي، وأنهـا مش هتخرجه من غرفة النوم عشان سواد عيـوني... مـرة اتشجعت وصحت فيها (طلعي الكلب ده برة)... ردت علـي في حنق (ده كلام فارغ... الكلام ده عندكم في مصر.. إنت هنا في إنجلترا... الكلب معنا في غرف النوم، في النزهـة، في كل وقت وفي كل مكان).

اعترفت لي (آن) ان الكلب كلبها من خمـس سـنوات وهو اللي بيسلي وحدتها بعدما تركها صديقها السابق، كـذلك بكت وقالت:

ـ الكلب أصيب بالاكتئاب والتوتر، أوه، ما تسـخرش مني، الطبيب البيطري قال كده.. كان بيزوم، وما يقعدشـي في مكان واحد، يلف ويدور، ويدور ويلف، لكنه الآن أفضل على الحبوب دي... حبوب مطمئنة ومهدئة.

عرفت فيما بعد ان (آن) نفسها مصـابة بالاكتئـاب، وبأنها تتجرع أقراص مطمئنة مهدئة المهم يا أمين مش هـي دي المشكلة، المشكلة أني عاجز عن ممارسة الجـنس مـن ساعة ما عرفتها، تقبلنـي بشـكل محمـوم ولمـا أحـاول مضاجعتها تزوم ككلبها وتبكي... اعترفت لي بعد فتـرة ان صديقها كان سادي ووقح شرير بشرب الخمرة بإفراط، وكان بيحاول يمارس معاها الجنس بوحشية، بشكل ممكن تعتبـره اغتصاب..

قلت:

ـ آديك أهو بتحل المشكلة وعارف جـذورها... مـا دامت بتتناول حبوب مهدئة مطمئنة فلا بد وأنها بتتعالج، ليه

ما تلجأش إنت لطبيب نفسي تطلب مشورته؟

قال:

ـ رحت... وأعتقد أنه ما فهمنيش... فمهما بلغت فصاحتي بالإنجليزية، اعتقد ان التراث والثقافة بيقفوا حاجز، المهم اللي زود الطينة بلّه إني بعاني من أعراض جسمانية طفيفة متكررة، بسيطة لكن مزعجة، كل شهرين تقريباً يطلع لي دمل في مكان حساس، قرب فتحة الشرج، ولما رحت للممارس العام تعجب وقال لي:

ـ غريبة دي تالت مرة والدمل يطلع في نفس المكان... على فكرة ده بيدل على توتر فظيع، توتر لا يحتمل.

ولما أسأله علاجه إيه التوتر ده؟

يضحك ويجاوبني:

ـ إنت الوحيد اللي يعرف...

سألت وجيه الذي كان ما زال سادراً في البعيد وكأنما يركز بصره على نقطة ضوء واحدة في العنقود الكهربي الممتد بطول البلادة:

ـ ويا ترى لسه بتعاني من العجز الجنسي لحد

دلوقتي؟

ـ أيوه.. فضلوا يسخروا مني بعد التخرج متحـدثين عن الخصاء الفكري، وآديني أهوه مخصي فكريـاً وجسـدياً عشان يرتاحوا...

ـ مين هم؟

استدرك ونظر إلي مباشرة محولاً وجهه للمرة الأولى عن البلادة وأضوائها الكهربية وقال:

ـ يعني مش عارفهم يعني؟ هم نفـس النـاس اللـي اتهموك بأنك شاعر وضعيف ورومانسي ولا تصلح للقيـادة وعندما أمسكت بزمامها قالوا انك نجحت بفضلهم هم اللـي كتبت عنهم مقالك الشهير »الأوصياء والأدعياء«.

أطرقت، حدقت في موقع قدمي وقلت:

ـ هم برضه اللي عملوا دوشه لما اتجوزت الهام...

قامت ريح باردة في اتجاهنا فانتفضنا، أخـرج وجيـه غليونه، دخنه في شراهة، مشينا متجاورين كقطـين بـريين تحني الريح قاماتنا... فننثني كأعواد الذرة حتى وصلنا إلـى المسكن الجامعي... ودعت وجيه إلى لقاء كان ذلـك اليـوم الأخير في المنهج، لم أره إلا خارجاً من منتصف محاضـرة

علم الإحصاء، تابعته بنظري وهو يحمل معطفـه ومظلتـه، أقلامه وأوراقه وكتبه.. ولم أسمع منه إلا بعد ظهور النتيجة.

الفصل الرابع

النجــــاح

كان هذا يوم ظهور النتيجة النهائيـة لزمالـة الكليـة الملكية للأمراض الباطنية في لندن، والنتيجة في هذه الـبلاد ترسل بالبريد في مظروف تخط عليه اسمك وعنوانك قبـل أداء الامتحان،وبعد شهرين ترسل إليك النتيجـة... مـا أن خطى ساعي البريد داخل المستشفى، حتى قفزت إلى عامـل الفرز ورجوته أن أقوم بهذا العمل بنفسي، فرزت خطابـات الإدارة والأخصائيين، الإستشارت، الطلبات، نتائج التحليـل، وخلافه.. وما أن وقع بصري على المظروف البني اللـون المكتوب عليه بخط يدي اسمي وعنواني، حتـى ارتعشـت، خطفته وصعدت إلى حجرة صغيرة كانت مخصصـة لـي بجوار عنبر الجادية، ألقيت بجسدي كله، بثقلـي، بهمومـه، بأحلامه، بتعبه، وكده وسـهره وعرقـه، بحزنـه وآمالـه، أحسست به ثقيلاً جداً وكأنه محقون بالماء، ثقيل ينزل بثقلـه على المقعد المبطن فتغوص المقعدة،إ ويغوص القلـب فـي الصدر، تفور الدماء في الرئتين وفي العروق صاعدة إلـى المخ تهزه وترجه من جانب إلى جانب بـين حنايـا الـرأي أحسست بأطرافي تفقد الإحساس، يهرب منها الدفء، تنمـل وتبرد، تزرق، ويتفصد جسدي عرقاً، ترتعش يدي اليسـرى

وهي تمسك بالمظروف، وتكاد اليمنى تشل وهـي تفضـه، وكأنها تفض غشاء عروس بكر في ليلة دهماء، أو علّها اليد التي تمسك بالمبضع لتفتح دملاً أو بطناً - اليد التي تمسـك بالقلب لتكتب دواءً لمريض على شفا الموت، اليد المحزونة المهمومة المندسة في جيب بلا قروش، اليد الصـماء التـي أخرسها الثلج والبرد ولـوت ذراعهـا العواصـف، تفـتح المظروف في عصبية، تهتكه إلى جزأين متوترين لا تمـت لشكل المظروف بصلة، تمتد يدي إلـى وريقـات بيضـاء مطبوعة بدقة لتقرأ خبر النجاح، ويمر بي شعور جنـوني.. كدت أصيح لولا التقاليد البريطانية، لكني رغمهـا تحركـت بشكل مصري صميم وقبلت حكيمة القسم في وجنتيها شاهقاً محاولاً أن أتكلم، لاهثاً استجمع أنفاسي:

- ... أنا... أنا... نـ... نـ... جـ... حت يا سسـتر...

جريت مسرع الخطى، أهبط الدرج في لمـح البصـر حتى كدت أنكفئ على وجهي، قطعت الطريـق مـن مبنـى المستشفى الرئيسي إلى سكن الأطباء فـي سـرعة مخيفـة، صعدت الدرج وكأني أثير بجناحي طائر خرافي، وصلت إلى

شقتنا، طرقت الباب طرقات متتالية،، صـائحاً فـي هيـاج بصوت عالٍ متهدج فرح:

- افتحي... افتحي يا إلهام...

كانت زوجتي ما زالت تحاول إزالة آثار الصباح عن وجهها، أن تلملم أطراف الأشياء، أن تلبي حاجـات أطفالنـا الصغار... رأيت ظلها من خلال الزجاج الكثيـف يجـري ليفتح، فتحت الباب، كان وجههـا شـاحباً، وكـادت تنطـق متسائلة:

- إيه اللي جرى يا أ...

احتضنتها بعنف، حملتها بين ذراعي، درت بها حـول نفسي، اغني:

- انا نجحت يا إلهام... انا نجحت يـا إلهـام... انـا نجحت يا إلهام... انا أخذت الشهادة...

واختنقنا بالدموع، أخذت أقبلها وتقبلني أطفالنا الصغار ينظرون إلينا في دهشة عن سر هذه الضجة المفاجئة.

***

اتصل بي وجيه تليفونياً، أخبرني بنجاحـه وحصـوله على الشهادة، حاولت أن أعرف مشروعاته المستقبلية علـى

ضوء هذا النجاح لكنه كان متحفظاً، غير ان نبـرة صـوته تغيرت وكأن الصدأ قد زال من عليها فبانت جلية واضـحة، أخبرني بأن ثمة حفلة صغيرة في فندق صغير بقلـب لنـدن ينظمها (عبد الكريم الحسيني)، لم يكن الاسم غريبـاً علـي فسألته:

ـ هو ده التاجر العراقي؟

فرد:

ـ نعم... دا صاحب محلات الفيـديو المتعـددة فـي العاصمة البريطانية، كما أنه يملك أكشـاكاً لبيـع الجرائـد والمجلات العربية، وله نشاطات أخرى مريبة تتعلق بالنساء ورجال الأعمال العرب والشقق المفروشة... سألت وجيه عن ماهية المناسبة كي يعزمنا عبد الكريم فقال:

ـ مانت عارف انه بيحب الدكاترة قـوي... لدرجـة العشق.

كنت أفهم سر هذا فعبد الكريم كان يتمنى ان يصـبح طبيباً، لكن جهوده لم تمكنه حتى من الحصول على الثانويـة العامة، فهاجر على سطح باخرة تمخر عباب البحار حيـث عمل بها طباخاً، ثم شاءت الظروف ان يستقر به المقام فـي

إنجلترا حيث عمل غاسلاً للصحون فـي مطـاعم السـمك والبطاطس الشعبية الشهيرة باسم (فيش آند شـبس). وفيهـا تعرف على أحد الشبان المصريين الذين قادوه إلـى ممـول عربي يريد أن يدخ لميدان تجارة الفيديو، عمل معـه لسـتة أشهر ثم فتح محله الصغير الذي كبر وكبر وولد وصارت له فروع حتى خارج بريطانيا... وصار عبد الكريم يشتري حق الأفلام العربية ليطبعها على شرائط الفيديو، ليـدخل عليـه إعلانات مساحيق الزينة وصابون الجمال فلا يكلفه شـراء الأفلام شيء فيكسف منها الآلاف، تعلـم فنـون القرصـنة الحديثة وصار له في كل عاصمة عربية عملاء يسجلون لـه البرامج والمسلسلات والأفلام، يرسلونها مع آخرين ينقلـون معهم أشياء أخرى ويحضرون في إيابهم أشـياء مختلفـة... تزوج من إنجليزية، اشترى بيتاً كبيراً كالقصـر الصـغير.. لكنه لم ينس قط رغبته في ان يكون طبيباً، علّه أفهم النـاس كلها التي كانت تتعامل معه انه دكتور فـي الفيـديو، طبـع صورته على أغلفة الشرائط التي يؤجرهـا بجـوار صـور النجوم، كان دائم الحديث عن إيمانه الشديد، عـن زوجتـه الإنجليزية التي أسلمت، عن أولاده الـذين تربـوا بطريقـة

عربية إسلامية، عن عدم شرب الخمر أو أكل لحم الخنزير واتباع التقاليد بدقة... كان عبد الكريم يشغّل عنده خليط من الشباب: عرب وإنجليز، كان يختارهم من المجرمين الذين سرقوا أو حاولوا سرقة شرائطه فيحول جريمتهم ضده إلى ولاء ويوجههم إلى الناس يراقبونهم... كان يبث كاميرات الفيديو تسجل بالصوت والصورة كل ما يجري داخل محلاته، يتابعها على الفور أو يراجعها حينما يحلو له تحليل سلوكيات الزبائن والعاملين. كان يختار مساعديه من ضعاف العقول، محدودي الذكاء وأحياناً من ذوي العاهات، ولما سئل عن سر ذلك قال:

- يعني يا أخي تريدني أن أشغل معي رجلاً ذكياً ليأكلني... هه..

قبلت دعوة عبد الكريم رغبة في قضاء وقت ظريف، اصطحبت زوجتي وتوجهنا إلى الفندق، التقينا ووجيه وصديقته، كانت السعادة بادية عليهما، التقينا كذلك وعدد من الأطباء العرب وزوجاتهم وصديقاتهم، أخذنا مقاعدنا حول مائدة مستطيلة كبيرة، كان عبد الكريم دائم الجلوس والنهوض، دائم الهمس والكلام، دائم الأمر والنهي، دائم

التحذير من وجوب التحقق من عدم وجود أي لحم خنزير في الطعام، وعدم تقديم أية مشروبات روحية إلا للأجانـب!... كانت الدكتورة جانيت متزينة في تعقل، سألتها عن تصورها للمستقبل فقالت:

ـ وا يا دكتور أمين المسألة صعبة جـداً... مصـر بلادنا وكل حاجة ول أتمنى إلا أن أعيش فيها لكن قـل لـي وحياتك أروح أشتغل إيه؟ وجوزي الجراح يشتغل فين؟

ابتسم زوجها معدلاً من وضع نظارته، ومعـدلاً مـن وضع شعره الكثيف قائلاً في خبث:

ـ آه صحيح أشتغل فين؟

سألته:

ـ وأنت بتشتغل فين دلوقتي؟

قال:

ـ مستشار في وظيفة مؤقتة...

قلت:

مؤقتة.. وهل ده شيء مرضي؟

قال:

ـ لا.. لكني أتوقع شيء جميل..

تدخلت الدكتورة جانيت قائلة:

- ممكن نروح بلد عربي نفطي، السعودية، الخلـيج، ان شاء ا نقعد عشر سنين، أو حتى ما نرجع خـالص ان كان الجو كويس... بصراحة آخر زيارة لمصر عقـدتني... أخلاق الناس اتغيرت بشـكل... تصـور.. تصـور كـانوا بيوغروا صدري من ناحية جوزي رغم ان دي أول زيـارة لنا لمصر من سنين..

ابتسمت ورددت قائلاً:

- وهي العزلة هنا تفرحك؟

- عزلة... عزلة إيه دي يا د. أمين؟ إحنا نعرف اكثر من ١٥ أسرة مصرية، انا ما بحسش بالعزلة.

أحسست بيد تلمس ذراعي، انتبهت فوجدت عبد الكريم يحتسي بعض النبيذ، كانت عينيه نصف مغمضتين، قال:

- انا سامعكم تتكلمون عن الخليج والسعودية هو إنت مش عندك عمل خاص...

قلت:

- في الحقيقة عندي وما عنديش.... يعنـي مـافيش زباين..

تجرع باقي الكأس مردداً:

ـ يبقى لازم تنضم للماسونية.

قلت وأنا أبلع ريقي:

ـ يعني إيه؟

ـ يعني تبقى ماسوني؟ مـش عـارف الماسـونيين، الأخوة يعني، تلبس خـواتم وقفـازات بيضـاء،إ يحمـوك ويحولواك حالات زي ما إنت عايز وتبقى تمام..

أحسست بخوف شديد... تذكرت كتاباً قديماً كنت قـد قرأته عن الماسونية، عن محفلهم الكبير بقلب لندن، عن قتلهم لمن يخرج عنهم، عن عالم غريب، حاولت تغيير الموضوع فسألت عبد الكريم مازحاً:

ـ إنما انا كنت فاكر انك ما بتشربش..

ـ آه... صحيح..لكن ده نبيذ.. فاتح للشهية.

انتقلت إلى الناحية الأخرى سـمعت الـدكتور سـليم يتحدث بصوت عالٍ يقطعه قضم متتال لقطع اللحم الذي كان مشهوراً باشتهائه، كان يصيح قائلاً:

ـ المشكلة صحيح، انك في البلد دي حاتفضل طـول عمرك مواطن من الدرجة الثانية، حتى لو خـدت الجنسـية

البريطانية،إ وده عندي افضل من مواطن من الدرجة الأولى في مصر، ثم انه مصر عشان تعيش كويس لازم تشتغل ليل ونهار وتعرق وتشقى، لكن هنا يومين ونص عطلـة نهايـة الأسبوع، مرتب معقول، هدوء، وخضرة و...

قاطعته قائلاً:

ـ ده مش هدوء.. ده صمت،، سكون... فراغ قاتل..

نظر إلي بطرف عينيه ثم انهمك في إنهاء قطعة اللحم المنبسطة أمامه...

قال وجيه، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يشـترك فيها في المناقشة، قال:

ـ أنا بصراحة فكرت في الموضوع كثيراً، انا اعتقـد أنه ممكن أستقر في مصر...

سألته:

ـ امتى؟

قال:

يعني بعدما أأمن نفسي هنا...

رد الدكتور سمير جراح العظام قائلاً:

ـ يعني.. يعمل لنفسه خط رجعة هنا...

ضحك وجيه وقال:

- بالضبط... لازم خط رجعة..

تساءلت:

- خط رجعة ليـه؟ هتقـارن مصـر بلنـدن والـلا بباريس... مصر هتخسر، من الأشرف لك انك تستقر هنـا، افضل من انك تنفق عمرك تعقد مقارنات لا طائل وراءهـا سوى الحسرة.

رد وجيه:

- أمين.. إنت لسه عصبي... هدي روعك أيها الثائر القديم... إيه اللي عرفك بأحوال مصر الآن؟ يا راجل... يـا راجل خليك واقعي... هتروح فين إنـت وأولادك إذا قامـت ثورة خومينية في مصر... هتروحوا فين إذا زحفت المجاعة من أثيوبيا على السودان على مصر بأسرع ما تتصور؟..

جف حلقي وقلت:

- إذن فأنت تخطط فراحة أبدية... وماذا عن قنابـل الجيش الجمهوري الأيرلندي هنا، ماذا لو أصـابتك واحـدة وأنت بتتسوق في محلات هارودز مثلاً؟...

عقب د. سمير قائلاً:

- ما تحرجهوش يا أمين، اللي عايز يختلق أعذار في أي بقعة من الأرض سيختلقها، ربما اخترع الجنة عشان يعيش فيها، أو يمكن يسافر القمر عشان يعالج سكانه؟

ظهر الضجر على وجه وجيه، بدأ أنه لم يكن مرتاحاً لسير الحديث، ابتلع ما أمامه من نبيذ وبدأ في الثرثرة مع صديقته بالإنجليزية...

سألتني د. جانيت:

- إنما انتم ما اشترتوش بيت ليه؟

ردت زوجتي الهام بسرعة:

- آه والنبي قوليله.. انا مش فاهمة؟

- لكنك بكده بتخسر بدفع الإيجار؟

- ربما لكن سأخسر برضه إذا بعت البيت بعد سنة مثلاً

تدخلت إلهام متسائلة:

سنة، سنة إيه؟

ردت د. جانيت:

- إحنا بصراحة بنفكر نعمل مشروع بيت للمسنين، يكسب دهب، إيه رأيكم تدخلوا معنا شركة؟

قلت:

يا جانيت... يا جانيـت..المـرة دي بيـت،، بكـرة مشروع... بعده عيادة... يكبر الأولاد وتكتر مسامير جحـا، بالمناسبة ماسمعتيش عن مشروع (باتيل(، باتيـل ده راجـل هندي طموح، جه البلد دي مفلس، ثم بدأ برأسمال صـغير، عمل مشروع سوبر ماركت، هندي يبيع الخضار والتوابـل، بعد أعوام بقى شركة كبيرة وحقق مكاسب ضخمة، لكن عيلة باتيل كلها غرقانة في الحسابات، وقتها كلـه مقضـي فـي المناقشات وفي تحويل الأحلام إلى حقايق، أصابتهم العصبية فرداً فرداً.... كبيرهم مريض بالذبحـة الصـدرية ومـلازم الفراش، أطفالهم نصف ملونين، مزيج من الهند وبريطانيـا، من غير هوية ولا وطن ولا كرامة... والآلاف في البنـوك وأسرة (باتيل) مبعثرة على وجه الوطن البريطاني.

ضحكت جانيت وزوجها في عصبية ثم قالت:

ـ إنت بتجيب الكلام ده منين يا دكتور أمين؟

رددت بسرعة:

ده حقيقي واقعي وكتبته صحيفة الصنداي تايمز.

مسحت فمها بالمنديل الورقي، تجرع وجيه كأس النبيذ

الثاني، صاحت زوجة عبد الكريم بالإنجليزية قائلة:

- لا تصدقوا عبد الكريم، انه كاذب، انا لم أسلم، نحن نأكل لحم الخنزير يومياً، ونحتسي الخمر كل ليلة...

جرها عبد الكريم من ذراعها واختفى بسرعة.

ضحك د. سمير معقباً:

- بصراحة مافيش عيب في الجواز من إنجليزية، كذلك ماحدش هيحاسب حد على دينه أو أكله للحم الخنزير أو شربه الخمر... دي مسائل شخصية.

قام وجيه ليرقص مع صديقته، كانا يلتصقان في تحنان، يتهاديان على صوت الموسيقى الهادئة، قامت جانيت لترقص مع زوجها، سألت إلهام ان كانت تريد ان ترقص فقالت: لا

فهمت ايضاً ان زوجة د. سمير لا تود الرقص، وحينما تحولت الموسيقى الهادئة إلى صاخبة شاهدت جسد وجيه يرتج عنفاً يتفصد عرقاً، يشع منه الخمر في كل خلجة ولمحة تدب أقدامه على الأرض في عصبية، كانت صديقته تتحرك بسرعة ولكن بإحكام.. بتروٍ... بتأن.. وببرود إنجليزي لا مثيل له.

الفصل الخامس

العـــودة

كنت أجلس على مقعدي في الطائرة مـتململاً، أخفـي توتري بالاستماع إلى أغنية أجنبية تتحدث عن الحب القوي الذي يرفع إلى عنان السماء، وعن أن الطريق الجريئة هـي التي بلا عودة...

دفنت أذناي في السماعات الخاصـة المركبـة علـى الرأس، الملتصقة بالأذنين تنقل إلي الموسـيقى والكلمـات، تسري بها في دمي، تشحن بها أعصابي، تمتلكني... لكنـي كنت شارداً... ثماني سنوات حدثت فيها متغيـرات كثيـرة، قرأنا فيها الكثير عن مصر، سمعنا الأنباء، تصفحنا الصحف والمجلات، طالعنا الكتب، ولهثنا نسمع الإذاعـات المختلفـة لكن كنا نعرف ان هذا شيء.. والواقع شيء آخر... أعطيت المسجل والسماعة إلى زوجتي ألقيت بظهري علـى المقعـد حاولت قراءة الجريدة الأجنبية، كانت تحكي عن طباخ ماهر يعمل في لندن، وجد في بيع جسـده للعجـائز الأمريكيـات فرصة للكسب السريع، قالت الجريدة أن دخله بلـغ الألـف جنيه إسترليني في الأسبوع... وأن نجاحه قد امتد إلى حد أنه أسس شركة تضم رجالاً لهذا الغـرض، كـذلك اسـتمرت الجريدة في وصف هذا الشـاب النـاجح قائلـة ان عينيـه

زرقاويتين ووجهه جميل، سألته الجريدة إن كانت لـه أيـة ميول شاذة تجاه الرجال، فأجاب: لا مانع من تجربة أي شيء طالما ان هناك من يدفع أكثر.

ابتسمت للحظة وفكرت في أخذ الجريدة إلى أصدقائي، لكن حسناً إني لم أفعل. فلقد كانوا مشتاقين لمعرفـة أخبـار وأشكال النساء الإنجليزيات، ملامحهن، حياتهن، طباعهن... تململت مرة أخرى في مقعدي، سعدت بأن حان موعد الغداء وبأن المضيفة والمضيف سيتوليان إكرامنا بما لـذ وطـاب، غير ان ظني خاب حينما تقدمت إلينـا بمجموعـة غريبـة متنافرة من الطعام، خالية من الطعم والذوق... تنحيت عـن مقعدي وقررت الإنشغال بالوقوف في طـابور دورة الميـاه والذهاب والعودة في طرقات الطائرة. كنت منشـغلاً عـن أولادي، أعيش في عالم غريب يعود بي إلى ثماني سـنوات مضت، وظللت هكذا متململاً إلى أن حـان موعـد هبـوط الطائرة، ضج صدري بخفقات قلبي وأخذ جلدي شكلاً غريباً. تهدج صوتي،إ ارتبكت زوجتي وسقط منها جواز السـفر... وقفنا في الطابور الطويل، تأخذنا الرهبة وبـدا لـي مطـار القاهرة الدولي غير ذاك الذي أقلعت منه... اخترق آذاننـا

صوت المذيع الداخلي يعلن عـن وصـول طـائرة العـال الإسرائيلية من تل أبيب، نظرت إلى زوجتـي فـي حنـق، نظرت إلي في غضب، نظرنا حوالينا فوجدنا كـل منشـغل بنفسه، ولما أعدت رواية الحدث على والدي ضحك فـي لا مبالاة وقال:

ـ وإيه يني؟ ليه الدهشة والغضب والحنق، هي مـش دولة زي كل الدول؟ أقمنا معاها معاهدة وعلاقات؟

أحسست بإحساس عميق يشدني من أسـفل معـدتي، يجذبني إلى هاوية غير محددة، طحنت أسناني بلعت ريقـي مع الكلمات وعيناي على الضابط الذي يفحص الجـوازات. قطع الطابور رجلان ملتحفان بوشائح زرقاء، علـى أغلـب الأحوال، انهما كانا من الصعيد، قادمان من بلد عربي، قالت زوجتي:

ـ ما لهمش حق يكسروا الطابور.

قلت:

ـ والنبي يا الهام إحنا مش في إنجلترا، زي بعضه...

ارتبكت، فكيف بي وأنا الذي ولدت كي أقاتل وأحارب وأدافع عن الحق والنظام ما الذي جرى بي؟! ولماذا؟ ألهـذا

الحد صرت جباناً؟ انتزعتني الهام من ارتباكي بأن صـاحت بالرجلين أمام الضابط الـذي لـم يجـد مفـراً إلا أمرهمـا بالابتعاد..

قال أحد الرجلين"

ـ طابور إيه يا ست... كل الناس جاية من برة، وكل الناس موجودة على أرض المطار... عجيبة.

فحص الضابط جواز سفر زوجتي، ثم جواز سـفري ووجه السؤال إلي:

ـ ليه ما زرتش مصر من ٨ سنوات؟

أجبت بالعاً ريقي:

ـ أبدا... كنت بدرس.

فحصني بنظرة ثاقبة وأودع أختامه فـوق صـفحات الجواز، مضينا لحال سبيلنا، نجر أولادنا وحقائبنا إلى خارج المطار.. كان هناك أناس كثيرون يتحلقون المكان ونحن في المنتصف موقف شبيه بحلبة الملاكمة، مهرجانات الشـوارع أو عله سوق بيع الماشية الأوروبي، الكـل يعـاين القـادم، والقادمون يفصـحون المنتظـرين فـرداً فـرداً، تفحصـنا المنتظرين علنا نجد أقاربنا، زاد ارتباكنا، حادثـت والـدي

تليفونياً فقط لان أخي الأكبر قد مضى لملاقاتي... ساومت سائق التاكسي ومضت الرحلة إلى بلادتنا، حاولت ان أضع حزام الأمان فصرخ السائق:

- لا يا بيه ده للزينة بس.

مضى بنا تحت نفق طويل عريض، شرح لنا كيف انه نفق وليس كوبري علوي كما هو الحال في كل أنحاء القاهرة. قال حتى لا يقلق الضجيج الشخصيات الهامة التي تسكن الحي الراقي، كذلك فإن الكوبري العلوي من الممكن ان يكون مصدراً لعدم الأمان.

سألنا السائق عن هويتنا وعن البلاد التي كنا فيها وعن المدة التي أمضيناها في الخارج، بدأ يحكي لنا عن الظواهر التي تحياها مصر الآن، قال ان الفلوس كثيرة جداً جداً، لكنها مع النصابين واللصوص... كذلك قال كلاماً كثيراً مهماً فحواه ان نجوم المجتمع هم وكلاء السيارات الأجنبية وأن التعامل معهم صار بكلمات غريبة مثل البلاطة والأرنب والأستك كناية عن الألف والمليون وغيرهما.

دخلت بنا دخلت بنا سيارة التاكسي إلى بلادتنا، مدينة الصف إلى جنوب القاهرة، كنت قد وضعت لشارعنا علامة،

ألا وهي لوكاندة الحق المتربعة على ناصيته، ولما لم أرهـا تهت عن منزلنا، عاد بنا لتاكسي وأنا ما زلت مرتكباً حتـى وجدت بيتنا... نزلت مرتعشاً... صـعدت درجـات السـلم الخمسة القديمة، طرقت الباب، سمعت صوت أبي وصـوت أمي، خلت إنني في حلم، طرقت الباب مرة أخرى ونظـرت إلى لونه الكابي... كان أبي في طريقه إلى فتح الباب في هذه الساعة المتأخرة من الليل، كنت متيقنا أنه يفتح لكنني ظللـت أطرق الباب، كنت لا أصدق ان هذا صـوته. ولا ان هـذا بابه... فتح... نظرت في عينيه... احتضنني... حدقت فـي وجهه، ارتبكت اكثر، تلقفتني أمي وهي تبكـي... أحسسـت بالغربة وكأنها كرة من الشوك منحشرة في حلقـي لا تنـزل ولا تخرج... ظننت أنني سأبكي بشدة، لكني كنـت عجيبـاً غريباً متوتراً... تمهلت الخطو خلال غرف بيتنـا الصـغير القديم... تلمست الجدران، حاولت ان استوضح كتابة قديمـة كنت قد خططتها بالقلم الرصاص على الحائط، كتابة دفعـت ثمنها غالياً ضرباً من أبي... وجدت الحائط مطليـاً بـألوان جديدة غريبة، شرح لي والذي بعد ذلك انهم قد غيـروا فـي شكل البيت لاستقبال الزوار والعرسان، حيث ان ثلاثة مـن

أخواتي البنات كن قد تزوجن، والأخيرة ما زالت تدرس، دخلت إلى دورة المياه، غرقت في صمت المكان، فتحت نافذة المنور، دهمتني ظلمته الغريبة، تذكرت الصراع الذي لا يكل بين الفئران والقطط، صراخ أولاد الجيران، زعيق الرجال وهمسات النسوة... كان الحمام بارداً وكان جسمي بارداً، سرت إلى عظامي قشعريرة غريبة، حاولت الاستسلام إلى النوم، تذكرت أني في مصر وأنني ملعون، وملعون أيضاً هذا الجيل المشتت المهموم المتبرم المتوتر العاصي الضائع، الذي يقاتل على ألف جبهة وربما لا يتمكن من أي شيء... جيل مبعثر بين السعودية والخليج وبغداد واليمن والجزائر ولندن وباريس وكندا وأمريكا... كانت مصر هي كل العالم فصارت بلداً من بلدان العالم، أدركت أنني صرت أتحدث مع زوجتي وأصدقائي عن مصر والمصريين بلغة الغائب، فنقول:

- المصريين دول... مصر دي بلد...

كنا ننتقد عادات المصريين، نتحرى أخبارهم، نحلل شخصياتهم، كنا لا نتحدث بفعل المنتمي...

قمت من سريري منتصباً في وجه النافذة، فتحتها على

مصراعيها، دخل إلى أرضية الغرفة ضوء القمـر الأزرق، استقبلته بكفاي، تذكرت الأشعار التي كنـت أكتبهـا علـى ضوئه، نظرت من خلال النافذة... ولم تسـتطع عينـاي ان ترى... كان الأفق محدوداً ببنايات هشة مكتومة عاجزة تفح منها أصوات غريبة... ولم انتبه إلا والشمس تأكل القمر وأنا أنصت للباعة الجوالين.

الفصل السادس

الأبـواب المغلقـة

خلال الأيام الأولى لنا في مصر، ثمة احساسات غريبة شملتنا جميعاً، أولادي الأربعة الذين أنجبتهم جميعـاً خـارج أرض الوطن كانوا في حيرة، الأكبر كان يظـن ان مصـر مجرد حفنة من الرمال، ثلاثة أهرامات وجمال... تماماً كما علمه الإنجليز في المدرسة... البنت الثانية احتضنت الأرض والسماء... عرفت ان لها جدود، أعمام، أخوال، أولاد عـم، بنات خال، فرحت جداً للقاءات الكثيـرة والزيـارات الـلا منتهية.. الاثنين الصغيرين خافا التغييـر المفـاجئ، تعلـق أحدهما برقبتي والآخر برقة أمه، تاها بـين الأيـدي التـي تلقفتهما، أيدي أهلي وأهل زوجتي، الأصدقاء... والجيران.

***

كنت أحس في البداية بعدم القـدرة علـى التركيـز، بالتشتت، بالاضطراب، كنت أطرق الأبواب القديمـة، تلـك التي طرقتها زمان، غالباً لم يفتح لي أحد، وأحياناً فـتح لـي ناس غرباء، ردوا الباب وقالوا: من تبحث عنه سافر، هاجر، أو تزوج وراح بيت ثـاني... كـان يزيـد مـن إحساسـي بالعزلة... ان بعض الناس كانوا يعاملونني كخواجة، ولمـا تجرأ أحدهم وسألني:

ـ هو الأستاذ عايش في بلاد برة؟

انتابني حرج فظيع، أجبت بالإيجاب وسألته:

ـ با عليك تقول لي ليه سألتني السؤال ده؟

ابتسم البائع في ود ورد:

ـ ربما لأن هادي و... يعني..

تذكرت وقفتي في طـابور الانتظـار للصـعود إلـى الطائرة في مطار هيثرو في لندن، أبـديت عـدم ارتيـاحي للتأخير ولكسر البعض للنظام، طالعتني أمريكية فارهة مـن خلال نظارتها الشمسية وقال: هل أنـت مصـري؟ أجبتهـا بالإيجاب، فردت ولم تضجر، ان مفهوم النظام معدوم لـدى المصريين... صمت ثم لمت نفسي بشدة لعدم الرد عليها، بل وشتمها وشتم كل الأمريكان الذين افسدوا بلادنا، لكنـي لـم افعل، بل وقفت مخذولاً، كإنسان مغتصـب ضـاعت منـه الفرصة المواتية للدفاع فضاع منه كل شيء.

***

قرر أبي ان يصحبني إلى مقهاه القديم والمفضل، ربما ليرفه عني، وربما ليقدمني إلى أصحابه: هذا ابني الدكتور... الأستاذ القادم من لندن... أخذني إلى مقهـاه المطـل علـى

الترعة التي دوما ما قلنا عنها أنها بحر، تنزهنا على شاطئها، تنسمنا نسيمها، استنشقنا عبيرها، ورأيناهـا تمتـد بامتـداد البصر، خطوت بجوارها، تأملت تجمعات النـاس الكثيـرة، ابتسم أبي حين اقتربت من بائعة الجرائد النحيلـة الشـاحبة الوجه تتلهى بأكل قطعة من الحلوى، كانت جرائد الحكومـة كالعادة منبسطة أمامها، كذلك كانـت هنـاك، كـل جرائـد المعارضة بالطبع سمعت بهم كلهم لكني مـا رأيـتهم ومـا اشتريت إحداهن في مصر... امتدت يدي بالعشـرة قـروش وسحبت إحدى نسخ جريـدة اليسـار، تأملـت المانشـيتات بسرعة، كنت أتوق إلى شرح شيء لأبي غير أنه قـاطعني قائلاً:

- دي بقى جريدة اليسار.. جريـدة حـزب اليسـار المعارض... تصور ان »نبيه« المسئول اللي بالمحافظة ظن أنى انتمي إليه؟ لا لشيء إلا لأنك كنت معـروف بميولـك الاشتراكية... بالمناسبة يا ابني انا قررت ان أعطى لمرشـح اليسار صـوتي فـي الانتخابـات القادمـة... وا عشـان خاطرك.. فرحة برجوعك لينا بعد العمر ده كله.

ابتسمت ونظرت إلى أبي في تحنـان شـديد، سـرت

بجواره، كان ظهره قد انحنى، وبطأت مشيته.. تذكرته يسير معتدل القامة مفعما بالكبرياء والكرامة حتى ان الباعة كانوا يخافونه ويبيعونه بالتسعيرة ظناً منهم انـه مسـؤول كبيـر بالتموين، خاصة وأنه كان دائم الارتـداء لنظـارة شمسـية مميزة، يخلعها في حركة مسرحية متأملـة، يحـدق بعينيـه الصقريتين في البائع. ثم يملأ صوته الجهوري المكان.. سار بجواري، تأملني ثم قال:

ـ ا إيه اللي جرى يا أمين؟ إنت مش عارف تمشي واللا إيه... دا إنت بتتعثر في طـوب بلـدنا... شـوارعنا المتربة يمكن مش مناسباك؟

خجلت، حاولت الدفاع عن نفسي، تذكرت بالفعل إنني قد جهلت المشي نظراً للتعامل الدائم مع السيارة فـي بـلاد الإنجليز حتى لشراء الجريدة من الدكان المجـاور متـذرعاً ببلادة الطقس، ببرودته... تذكرتني أسير بجوار أبـي فـي شارع سليمان باشا عقب الإفراج عني في أحداث الطلاب في أوائل السبعينات، كان يمسك بيدي، يخطو بقدمه اليمنى مـع خطوة قدمي اليمنى، وبقدمه اليسرى مع قدمي اليسـرى، ان أخرت خطوة تأخر خطوة، وإن تقـدمت تقـدم، ان تمهلـت

لأطالع كشك الصحف الشهير بميدان سليمان باشـا، تمهـل وشدني، كنت وقتها ايضاً أتعثر، فلقد كانت حياة السجن تتميز بالجلوس الدائم، بالنهوض أحيانا، وبالمشي إلى دورة الميـاه وبالعكس.

أبي الآن لا يمسك يدي، انه يسحب يده حينما انحنـي لأقبلها في الصباح كما تعودت قائلاً:

ـ صباح الخير يا بابا..

أبي ينظر إلي بإعزاز وإكبـار، كـان يعـرف أننـي خرجت عن طوقه من زمن، وأنني طلقته منذ فترة، يعـرف انه حاول مد الوصاية عبر الرسائل ناصحاً بالاكتفاء بولد، ثم بالاكتفاء بطفلين، وهكذا ظل ناصحاً، لكنه عرف ان البريـد يحمل الرسائل، وان الوصاية لا بد وأن تصـاحبها النظـرة القوية، الصوت الجهوري، الحضور.. كان يعرف أنني قـد أنهيت كل دراساتي وانه لا مجال للنصح... غير انه تنبه إلى عيب كبير في يمكنه من ممارسة هواية النصح دون حـرج، ألا وهو التنبيه على ضرورة توفير النقود ومراعـاة عـدم صرفها على الكتب والشرائط، لكنه كـان نصـحاً خجـولاً، وجهه بشكل ما إلى زوجتـي سـائلاً إياهـا ان تتنبـه وأن

تساعدني على الاقتصاد.

وصلنا إلى المقهى، مرة أخرى، فـي نظـرة واحـدة ابتلعت المكان، عرفت حدوده وأركانه، فـي لحظـة زمـن محدودة أصبح المقهى معروفاً وزمان، كان المقهى كملعـب كرة القدم، كدت اخرج عن وعيي وأقوم بقياس المسافة مـن مدخل المقهى حتى منتهاه، لكن فجأة انتصب عبـد الشـكور أفندي واقفاً قدمني أبي إليه، كان الرجل يمتلك مكتبة باعهـا والآن هو سعيد جداً بالجلوس على المقهى، بالأكل والنـوم، والتنزه على كورنيش الترعة.. البحر.. ظل الرجـل يـردد (أهلاً وسهلاً... أهلا وسهلاً) ولم يتعب، عزم علي بزجاجـة مياه غازية، بعد فترة انضم إلينـا وديـع أفنـدي الموظـف بالمساحة سابقاً، كان قصيراً ذو كرش كان يغفو بين الحـين والحين ثم ينتبه منزعجاً يهش الذباب بمنشته ذيل الحصـان، مردداً:

ـ أهلا وسهلاً يا دكتور... حمد ا ع السلامة... حمد ا ع السلامة.

ثم يعود إلى النوم مرة أخرى.

كان أبي ما يزال مرتدياً نظارته الشمسية، كان بعـض

الناس الذين أجهلهم يمشون إلى جوار القهوة ويحيونه، فيـرد التحية في هدوء...

قال أبي:

تعال ندخل جوه... عايز انضم إلى صحبة الدومينو.

كان أبى يحكي لي دائماً عن مغامراتـه وانتصـاراته على رؤسائه في العمل في ميدان الدومينو في القهوة، كـان ايضاً يحكي لنا عن هزائمه، لم يكن ـ فـي عرفـه ـ انـه المسؤول عنها، ولكن زميله في اللعب، أحد رؤساء العمـل مرة أخرى.

حييت أفراد فريق الدومينو، كانوا كلهـم علـى سـن المعاش، الأستاذ الحصري، أستاذ اللغة العربية الذي لم يكن تعجبه شطحاتي في موضوعات التعبير، العقيد متقاعد حسني عبد الموجود، الذي بدا رياضياً كما كان غير انه، وبحركـة تلقائية انتزع مني جريدة المعارضـة، طـالع المانشـيتات، وابتسم ثم قال:

ـ والأستاذ بيشجع اليسار من بلاد بره؟

فضحك أبي ورد بالنيابة عني:

ـ في الحقيقة لا... ده بس عايز يطلع على اخـتلاف

وجهات النظر..

نظر فاروق أفندي صاحب الأطيان إلي، لعـب دوره، ثم سجل عبد المجيد سابق مفتش السكة الحديد الانتصار على الورق، ابتسم أبى قائلاً انه لو كان قد شارك المهزوم لكسب لكنها الظروف، سألني الأستاذ الحصري عن أحوال الشـعب البريطاني، فقلت:

ـ هم ناس زينا..

توقف، تمهلت في يديه قطع الدومينو، حدق في دهشة وغضب قائلاً:

ـ يعني إيه يا أستاذ؟

فقلت في هدوء:

ـ اقصد ان بينهم الأغنياء والفقراء.

فرد:

ـ ده في العالم كله يا دكتور، دي مسألة طبيعية، انـا اقصد ما هو الفرق بين الإنجليز وبيننا من وجهـة نظـرك يعني، كرجل عشت بينهم كل هذه السنوات..

قلت:

ـ هم ناس بيحبوا الكلاب جداً، يكرهوا المـاء جـداً،

يهتموا بالجنس والسياسة وموسيقى البوب..

استمرت لعبة الدومينو، انتهت، أخذت طريقـي إلـى الخارج مصطحباً أبي، انتبهت إلى ان فاروق أفندي يسحبني من يدي في هدوء، إلى ركن شبه هادئ على انفراد وسألني:

ـ يا ترى جبت معاك مقويات جنسية من لنـدن؟ وا هادفع فيها اللي تطلبه...

احمر وجهي قليلاً وقلت:

ـ للأسف لا.. لكن إن شاء ا المرة الجاية.

لحقت بأبي الذي مضى معي دون ان يحاول سـؤالي عن سر فاروق أفندي، فهمت انه يعرف، وأنهما ربما تحـدثا في الأمر مرات عديدة، لأنني بالطبع لست أول مسافر قادم، فهناك الكثيرون يحضرون من السعودية والخليج، لكن مما لا شك فيه ان للندن طعم خاص، فهمت ايضاً أنه اربما وعـده أبي بالكتابة إلي لكنه تحرج..

***

قمت إلى زيارة أخي الأكبر الذي كان قد فشـل فـي الحصول على الثانوية العامة فدخل الجيش وخرج ليعمل في تجارة الشنطة ما بين بورسعيد ومصر، ثم توسعت تجارتـه

فصارت بالدولار، ثم توسعت فأصبح المتعهد الوحيد للدجاج المذبوح بمدينة جدة.

صار ضخماً يرتـدي العبـاءة الحريريـة والسـيارة المرسيدس، كان يهوي تدخين بعض الأعشاب وكان يحـب الكلام، سألني أي نوع من الخمر قد أحضرت معي، اعتذرت بشدة لجهلي، فقال:

ما عليك كله موجود هنا...

شغّل جهاز الستريو الضخم وسمعت صـوت احمـد عدوية يشدو عالياً بكلمات عجيبة عن السمن والزبد والعسل وأم حسن... مال على أذني وقال:

- بصراحة.. ما كناش فاكرينك هترجع، العـالم هنـا بتقول انك طفشت.

حكى لي عن مشاريعه وأمواله وسفرياته وكيف أنـه يتحكم في سوق العملة بشكل ما، عزمني على بيرة مثلجـة، تجشأ، ثم استرسل في حكاياته وسألني بلهفة عـن إمكانيـة الزواج بإنجليزية بيضاء شقرا، أبديت له رأيي شارحاً بـأن الزواج من أجنبيات لا يخلوا من المشاكل، ضحك عالياً ثـم قال:

ـ مشاكل.. مشاكل.. بس نناسب الإنجليز يمكن نعمل مشروع هناك.

بلع ما أمامه من ترمس، تجـرع البيـرة، تجشـأ... استأذنته ومضيت متعثر الخطى...

***

سألت أبى عن صديق قديم، كان رفيق طفـولتي منـذ أول يوم بالمدرسة الابتدائية وحتى التخرج من الكلية، عرفت انه يعمل ببلدتنا كأخصائي أنف وأذن وحنجـرة بالمستشـفى العام، وأن له عيادة تطل على الترعة البحر... صارحني أبى انه قد اخبره بأنني قادم.. اتجهت إلى عيادته بعـد الظهـر، محاولاً مفاجأة صديقي القديم دون سابق موعد. عرجت على مقهى شعبي قديم كنت ارتاده دائماً، احتسيت الشاي بالنعناع، صعدت السلم في هدوء، تقدمت إلى داخل العيادة، طـالعتني امرأة سمراء، ترتدي زياً فلاحياً ويبدو عليها عدم الاهتمـام، سألتها:

ـ الدكتور صمويل موجود...

ـ نعم نقول له مين؟

ـ الدكتور أمين..

تعمدت إلا اذكر اسمي الكامل حتى لا يتعرف علـي، جلست في حجرة الانتظار أتلهى بإبعاد الذباب عنـي، ألـت النظر من النافذة مراقباً الشارع المليء بالناس،، بالخضـار، بالفاكهة، ببائعي الخردوات المصطفين على كورنيش الترعة البحر... جاءت المرأة الغير مهتمة قائلة ان الدكتور مسـتعد الآن لملاقاتي... خطوت تجـاه الغرفـة وذهنـي مشـحون بذكريات المدرسة الابتدائية والإعدادية، بحكايـات البنـات الصغيرات، بأيام الكلية وصعوبة المواد، بالفشـل والنجـاح، بأيام (ليالي المدينة الجامعية... دخلت إلى حجرة العيـادة... صاح د. صمويل:

- مش معقول... ياه..

احتضني بلهفة، تأملني قائلاً:

- يخرب عقلك يا أمين.. مش ممكن أتصـور انـك إنت... ياه... لما قالت لي الدكتور أمين انا افتكرتك صيدلي من إياهم مندوب عن شركة أدوية جاي يروج لدوا جديد.

لاحظت ان الشيب قد دب في رأسه، وانطفأ في عينيه وهج قديم، لهفة مشبوبة خمدت وراحت لم يهملنـي لحظـة حتى استدار قائلاً وهو ما زال واقفاً وأنا كذلك واقف قبالتـه

في منتصف الحجرة:

ـ ا ... إنما إنت إيه اللي جابك؟

ضحكت ورددت:

ـ كده برضه... بـدل مـا تقـول لـي حمـد ا ع السلامة..

ـ مش قصدي.. إوعى تكون رجعت نهائي...

ـ في الحقيقة لا.. بس بفكر...

ـ تفكر؟ وهي دي حاجة عايزه تفكير؟ أمـين... دي حاجة مش عايزه تفكير... البلد حالها انعكس، الفلوس كترت قوي لكن مع الأوبـاش واللصـوص، الفضـيلة والشـرف والأخلاق مؤهلات عظيمة للفقر... حتى ف مهنـة الطـب عشان تكسب لازم تعيب في زمايلك وتشرح لـده ولـده ان الدكتور فلان حمار وان الدكتور علان ما بـيفهمش وبكـده تفضل في السوق والزباين تجيلك.

أشار بيده آمراً إياي بالجلوس، مشى بتؤدة حتى جلس على كرسيه خلف مكتبه، وضع كلتا ذراعيه أمامـه، شـبك يديه، أحنى رأسه قليلاً ثم قال:

ـ ألف مبروك يا أمين على زمالة الكلية الملكيـة...

ألف مبروك..

كانت أمامه على المكتب لوحة صغيرة كتـب عليهـا اسمه بخط كبير... أمامها وحولها تتناثر مجموعات الكتـب وعينات الأدوية... نظرت إليه مبتسماً ومحاولاً التفتيش عن الماضي في سواد عينيه وقلت:

ـ يا صمويل مصر هي الوطن الوحيد لنـا... مهمـا حصل.

ضحك عالياً، مغيراً من وضع الكرسي بحيث يكـون اتجاهه ناحية الحائط، فبدا وكأنه يكلم الحـائط والسـقف، أو عله كان يكلم نفسه، ضحك عالياً، مـرة أخـرى ثـم قـال متسائلاً:

ـ هو إنت يا أمين لسه وطني؟.. يخرب بيتك يا واد، هو إنت ما تبتش واللا إيه، إنت مجنـون، وطـن إيـه يـا راجل... وطن إيه اللي يكون فيه السماسرة ملوك، والقوادين سادة... وطن إيه اللي يسرح فيه العفن عشـان ياكـل كـل شيء.

تقدم إلي، مشيراً بإصبع سبابة يـده اليسـرى ناحيـة وجهي لدرجة أنه وكأنه ينوي فقأ عيني قائلاً بتأكيد:

ـ أمين... حرام عليك... حرام عليك تضـيع اللـي بنيته... حاول تخفف من رومانسيتك القديمة..

نظرت إلى موضع قدمي، شربت زجاجة الكوكـاكولا الساخنة في جرعة واحدة، أحسست بها مرة فـي حلقـي... صافحته مواعداً إياه على ان نلتقي... ومضيت إلـى غيـر رجعة.

***

صديقي القديم (مهنا) هاجر إلى النمسـا، كـان أبـوه بمشابه الأرب الروحي لأطباء بلادتنا، قررت زيارته للسـؤال عن مهنى، وبالمرة كي ابرز قدراتي في الخارج، كي أتفاخر بحصولي على الشهادة ربما لا شعورياً كي ا ريه انه وعائلته وغناه الفاحش وقدراته الكبيرة لم يتمكن من الحصول على ما حصلت عليه.. لم أفكر في كل هذا إلا وأنا داخل عيادته.. إلا وهو يتحدث إلي كتلميذ صغير يسألني عن الحديث في عـالم الطب الباطني عن احدث العقاقير، أنواعها.

دخلت علينا امرأة ترتدي زياً فلاحياً محضرة زجاجـة كوكاكولا نصف باردة، وضعتها على المنضدة بيننا، تطرق الدكتور الوالد إلى سؤالي عن احدث الأدوية المهدئة مؤكـداً

علي ان الطب النفسي جزء من الطب الباطني، ظننـت انـه يريد هذه المعلومات لاستخدامها في عيادته... لكني لم أدرك السر إلا حين أصر على زيارتهم في منزلهم وارؤية سـمير أخو مهنى، هذا الأخ الفظيع الذي كنت قد نسيت وجوده، وما ان ذكر ا سمه حتى فار الدم في عروقـي، تـذكرت كيـف أغراني بتدبير لقاء مع إحدى بنات البلدة في القاهرة، ثم قـام في نف الوقت بإبلاغ أخيها، تذكرت ايضاً انه كان يستعد مع مجموعة من الطلاب لضربي وسحقي، وتذكرت كيف كـن يتشنج ويصرخ... ذهبت إلى منزلهم في المسـاء، التقيـت بسمير، الذي كان منطفئاً إلى حد بعيد، سلم علي بطرف يده التي كانت باردة حرقت أطراف بعض أصـابعها السـجائر، كانت به صفرة غريبة، كان يتحدث بشكل ميكانيكي، قال:

ـ اسمع... انا مهندس كبير ولي زباين كتيـر، مـش عايز حد يعرف أنى مريض... انا من فترة بسمع أصـوات كثيرة بتنقل لي أخبار الموتى، فهم سعداء في دنياهم، ملـوك في عالمهم، بالمناسبة انا سمعت صوت صديقك القديم الفنان اللي انتحر، فاكره... ده خيرت، كلمني في ليلـة وقـال ان الموس لم تسمه كما أشيع، وأنه لم يقتل نفسه كما ادعـوا،

قال انه قتل، وان ثلاثة ملايكة بيلبسوا ازرق حضـروا فـي الليل وغرسوا في صدره فرش الألوان اللي كان بيرسم بيها، وقال - انهم - الملايكة كانوا من رجال المباحـث، وانـه شافهم قبل كده في مدرج كلية الطب وهو بيزورك.

للحظة تملكني حديثه، فصديقي العزيز جداً خيرت لـم يغب عن خاطري، ولم ننسه قط، حقاً لقد اقتنعت بعد فترة انه مات لكني لم أنسى انه مات وأنا في السجن، ولما خرجـت للقائه لم أجده... تذكرت ايضـاً أن زوجتـي إلهـام كانـت تعارض وضع صورته في أماكن بارزة في البيـت مؤكـدة على ان الذي مات قد مات، وأننا لن نحيي المـوتى بتعليـق صورهم، ظللت أعاندها وأعلق صورته بغرفة مكتبي حتـى اقتنعت برأيها، ودفنت الصورة بين كتبي الجديـدة، للحظـة صدقت سمير فيما يقوله فسألته:

- وما سألكشي عني؟

ضحك سمير عالياً وقال ساخراً:

- لا...

أفهمني سمير بأن علي أن أساعده بكل ما أوتيت مـن علم وقوة واتصالات، وعدته بذلك، جاء أبوه ليشكرني مـرة

أخرى، وصلني حتى خارج المنزل، مرت بجسدي قشعريرة خفيفة وأنا أخطو خارج المنطقة.

الفصل السابع

الحلـــــم

خلدت إلى النوم على سريري القديم، فراشي الذي افترشه منذ كنت طفلاً، كان السرير صغيراً بالنسبة إلى طولي، كان علي أن أثني جسدي وركبتاي للأمام، كان ملمس السرير بارداً جافاً وصلباً، استسملت للنعاس وغبت في نوم عميق...

طرق شخص الباب مرة واحدة، طرق الباب القديم مرة واحدة، وانتظر، قمت مفزوعاً من نومي، نفضت عني غطائي بسرعة وسرت إلى بابنا القديم، أزحت المزلاج الأول والثاني، فتحت القفل (الييل) الألماني (كان أبي حريصاً جداً على إحكام إغلاق الباب القديم خشية اللصوص الذين كانوا في الماضي يسرقون الأواني النحاسية، وأحياناً الألومنيوم، غير ان أبى موسوس بطبعه، لهذا استمر في عادة إحكام الإغلاق)...

فتحت الباب... وجدت رجلاً أسمر، فارع الطول، رحب الصدر، سمح المحيا، مهيب الطلعة ذو ملامح مصرية فرعونية أصيلة، شعره مجعد أكل الشيب نصفه، عيناه متقدتان بوهج قدسي جميل، تفيضان حناناً غامراً، كان يلبس

جلباباً أبيض، كان منتعشاً حيوياً، واثقاً ومتأملاً تأملتـه فـي تحنان شديد، وتأملني في صبر كبير، كنت أنتفض، أسـناني تصطك، يداي ترتعشان وقلبي يدق في نف، قلت:

ـ نعم.. أي خدمة؟

قال:

ـ انا العم عبد القادر

ـ أهلاً وسهلاً...

نظر إلي في عتاب ثم قال:

ـ ألا تعرفني؟

تلعثمت وأجبت بسرعة:

ـ نعم... بالطبع... وكيف لا؟... ومن يجهلك؟ اعتقد التقينا من قبل...

ابتسم في هدوء ثم قال:

ـ لقد جئت حسب الموعد كي أصطحبك إلى أرجـاء مصر...

ازداد ارتباكي وارتعاشي وبان علي الوجوم!

قلت:

ـ لا مانع.. لكني لست على استعداد..

سألني في أبوية غامرة:

ـ مالك يا أمين؟

أجبت وأنا أخرج الحروف من صدري بالكاد:

ـ انا خائف!

لف ذراعه حولي، ربت على ظهري وهمهم:

ـ هون عليك يا أمين... لا تخف... لا بد مـن هـذه الرحلة..

أجبت مبتسماً:

ـ لا بد لا بد... إذن فلأذهب لأغير ملابسي..

قال بسرعة:

ـ لا... ليس هناك وقت.. لا داعي... لا تخجل مـن الظهور كما أنت... لن يراك أحد وأنت معي..

أغلقت الباب خلفي تاركاً أبي وأمي وزوجتي وأولادي، قطعنا طرقاً وطرق، ذرعنا شوارع وشوارع عبرنا صحراء شاسعة وحقولاً ممتدة... حتى وصلنا إلى القاهرة... وعنـد أطرافها قال:

ـ هل ترى هذا المطعم؟

رددت:

- نعم... لقد رأيته من قبل، في بلاد الإنجليـز، أنـه مطعم (الويمبي).

- إذن... تعال ندخل.

دخلنا، قادني مباشرة إلى المطبخ، كانت أطنان اللحـم المفروم تكبس وتحمر وتوضع في أقراص الخبز الصـغيرة، تزينها أوراق مكتوب عليها حروف أجنبية، يقـدمها باعـة مصريون شبان يرتدون زي (ويمبي) العالمي، كـان سـعر السندوتش أربعين قرشاً، وأحيانا ستين، كانت الوجبة تكلـف الفرد جنيهين، والأسرة عشرة جنيهات.

سألني:

- هل تذكر عندما قامت المظاهرات عـام ٦٨ تنـدد بأشياء كثيرة منها ان كيلو اللحم صار ثمنه جنيهاً...

أجبت:

- نعم...

سألني:

- وما رأيك في (الويمبي) هل هو مغذي للمصريين؟

قلت: في الحقيقة لا.. ولا للأجانب.

شدني من ذراعي، صرنا في الطريـق العـام مـرة أخرى، دخلنا فنادق جديدة، وكثيرة لم اسـتوعب أسـماءها رغم أنني قضيت في أوروبا ثماني سنوات. التقينـا بتجـار المخدرات بائعي العملة، تجار النساء، عاقـدي الصـفقات، والسواح الأجانب، وفي إحدى الاستراحات المنتشرة عطشت جداً فطلبت زجاجة مياه غازية كانت محببة إلـي، (السـيكو ليمون) حملق في الجرسون في دهشة وقال انهـم يبيعـون (الكوكتيل)، الشمبانيا، شراب اللوز والكرز، قلت في خجـل شديد:

ـ هل اطمع في كوب شاي وكوب ماء؟

ضحك الجرسون عالياً ومضى، نظر إلى العـم عبـد القادر في حزن، سألته:

ـ هل سيحضر الشاي والماء أم نمشي؟

ابتسم في صبر قائلاً:

ـ اصبر يا أمين.. مالك صرت عصبياً... اعتقد أنـه سيأتي بالطلبات.

انتظرت وأنا اقرض أطراف أصابعي بأسناني، ولمـا حضر الجرسون بالطلبات وجدت أمامي إبريقاً عاجي اللون،

مزخرف على الطريقة اليابانية، فنجال أنيق جداً كما لو كان مزخرفاً بالصدف، زجاجة بلاستيكية شفافة بها ماء رقـراق كتبت عليها حروف لاتينية، فهمت فيما بعد أنها مياه معدنية، كانت كل هذه الأشياء موضوعة بعناية فـوق صـينية مـن الفضة... صببت الشاي، ارتشفت منه قطرة، كـان طعمـه غريباً، غير مألوف، إلا أنه كان عذباً... سألت العـم عبـد القادر:

ـ عفواً... لم تطلب شيئاً...

قال شاكراً:

ـ انا لا آكل ولا أشرب...

سألته:

هل ساعدتني كي نحكم على مذاق هذا الشاي؟

قال:

ـ لا... افضل أن أترك الأمر كله لك.

انتهيت من شرابي، دعونا الجرسون إلى أخذ الحساب الذي كان اكثر من ثلاثة جنيهات، صدمني سعر الطلبـات، لكن ما ان امتدت يدي بالجنيهات إلى الجرسون حتى صرخ في وجهي قائلاً:

ـ جنيهات مصرية؟... ألم تسـمع؟... قلـت ثلاثـة دولارات.

احمر وجهي، اضطربت، قلت:

ـ لكن نحن في مصر، والعملـة هنـا هـي الجنيـه المصري.

رد في حنق:

ـ لا... إنت لست في مصر... إنت هنا فـي أفخـم استراحات الهرم... معك أم لا؟

رددت في أسف شديد:

ـ معي بعض الجنيهات الإسترلينية..

ـ هات

ـ كم؟

ـ ثلاثة..

ـ لكن الإسترليني يساوي اكثر من الدولار!

ـ نعم.. هذا في البنك وليس هنا..

آثرت ان انهي الموقف، دفعت لـه الثلاثـة جنيهـات الإسترلينية، امتدت يد العم عبد القادر لتربت علـى ظهـري قائلاً:

ـ لا تحزن... ان ا   معنا.

نزلت من عيني دمعة مرة، اختلطت بطعـم الشـاي، عرفت فيما بعد انه ممزوج برحيق ملكات النحل.

***

وصلنا إلى السويس، دخلنا إلـى أحيائهـا الصـامدة، صافحنا رجالها الأبطال، رأينا البنايات الجديدة، اسـتوقفتني بعض البنايات المهدمة، سألت العم عبد القادر:

ـ ألم تنته الحرب، لما هذا الدمار؟

ـ إنها عمارات انهارت بعد بنائها مباشرة...

ـ على سكانها؟

ـ نعم...

أخذنا طريقنا إلى قناة السويس، وقفنا نتأمل السفن التي تمخر عباب المياه، قلت للعم عبد القادر:

ـ إني مشتاق لزيارة البحر الأحمر.

أخذني إلى بقعة جميلة، لكنها كانت ملأى بالأجانـب، كن يرتدين لباس البحر المكشوف، وكن ايضاً يجـدن اللغـة العربية، اقتربن مني، تحلقنني، سألوني:

ـ تلعب؟

تحيرت ثم نظرت للعم عبد القادر فوجدته يشيح بوجهه بعيداً، أعادوا السؤال:

ـ تلعب؟

دفعني الفضول وقلت:

ـ نعم...

بدءوا في غناء أغنية أطفال قديمة تقول:

ـ مروا هنا تحت الياسمين

لما نشوف مين يغلب مين

وقفوا كلهن في صف طويل يشبكون أياديهن... كـان الكل يدخل حتى الياسمين، بين رجل وامرأة، يسـألانه عـن كلمة السر فيهمس بها، ولما جاء دوري تحيرت مرة أخـرى لكن أسعفتني ذاكرتي تلقائيـاً بالكلمـة... »الأرض«، ولمـا قاربت اللعبة على الانتهاء وجدت نفسي وحدي في ناحيـة، والسواح كلهن في ناحية، يشبكن أياديهن في ظهور بعضهن، مدت الأولى يدها البيضاء البضة إلي صائحة:

ـ شد... هي اللعبة كده...

نظرت خلفي مرتكباً مستنجداً، التفت العم عبد القـادر إلي قائلاً:

ـ شد... شد يا أمين.، انا هسندك.

قبضت على يدها في قوة، وقبضت هي عليهـا فـي عناد، حدجتني بنظرة صارمة، شدت وشدوا كلهـن معهـا، شددت، وشد معي العم عبد القادر، واستمر الشد فترة تصبب فيها عرقي حتى انفرط العقد ووجدتني أقـع فـي معسـكر أعدائي في اللعبة، حاولت قراءة ملامح العم عبـد القـادر، ألفيت دمعتين كبيرتين تسقطان على خده الأسمر، حاولت ان أهون عليه باقتراح ان نذهب في رحلة في قـارب زجـاجي إلى أعماق البحر الأحمر، ذهبنا وطالعنا المرجان والسـمك القرمزي والأعشاب البحرية الجميلة، لكنه كان غيـر مهـتم بالرد، كان شارداً مشتتاً ومهموماً...

عدنا إلى القاهرة، دخلنا إلى مقهى الفيشاوي بالحسين، جلسنا قبالة بعضينا سألني:

ـ هل تود اكتشاف القاهرة بالليل؟

ـ في الحقيقة لقد ارتدت شـارع الهـرم منـذ تسـع سنوات، ولا اعتقد انه تغير.

رد العم عبد القادر في هدوء:

ـ إذن.. نصحبك إلى غرف (الديسكو)

سألت مستغرباً:

ـ هو (الديسكو) انتقل إلى هنا أيضاً؟

ضحك عالياً وقال:

ـ انه هنا الكثر من عندكم في أوروبا...

وذهبنا نحث الخطى، رأيت اللمبات الكهربية تضـيء بألف لون ولون، ورأيت الشباب يترنح ويرقص بألف شكل، شاهدت بناتاً يرتدين فسـاتين قصـيرة وبنطلونـات جلديـة مضمومة لامعة، شاهدت ملصقات (مايكل جاكسون) و(جون ترافولتا) و(بوي جورج)، شاهدت ايضـاً فـرق (البـوب) المصرية، فرق عصرية جداً، أحدها يقودها طبيب وإخوانه، طبيب شديد الذكاء، شديد العبقرية، نجح في تحويـل الحـان مطرب الجيل سيد درويش، إلى موسيقى (بوب) كان ناجحـاً في تحويل الألحان المصرية الصـميمة بحيـث تهتـز لهـا الأرداف والصدور، تمتزج بالخمر، بالأضـواء بـالطبول، بالجيتار الكهربي الذي تربع على عرش الآلات.

خرجت من صالات (الديسكو) مصاباً بالدوار.

ذهبنا إلى ميدان العتبة، وهناك سمعنا صـوت احمـد عدوية يغني ويصيح من ألف جهاز تسجيل كان الناس بـلا

وعي مدمنين على سماعها، أغاني بكلمات وألحان غريبة عن كبش مذبوح، ومرق نابع منه، عن شعر أم حسن المـدهون بالزبد وأشياء أخرى لم افهمها لهذا تذرعت بحجـة وجـوب الاستماع إلى هذه الكلمات على انفراد لتفهمهـا واسـتيعابها فاشتريت منها شريطاً أودعته جيبي ـ ولـم اخفـي شـوقي الشديد لاكتشاف هذا العالم السحري، غير ان هذا لم يمنعنـي من الاستماع بحرص إلى المطربين الآخرين خاصة شـادية وهي تتغنى بتراب مصر قائلة انه كحل للعين، مسحت عيني من آ،ثار التراب ومضيت إلى حال سبيلي، في صحبة العـم عبد القادر... مررنا بمعسكرات الجيش والكليات العسكرية، تطلعنا للزي الجديد... سرنا إلـى عـدد مـن المستشـفيات الخاصة، قابلنا أطباء تتعامل بالملايين، وجراحين تمنح الحياة لمن يدفع اكثر، وأخصائي نساء وولادة يولـدون بالـدولار والإسترليني والريال السعودي، ولادة مسـتعجلة، وكشـف خاص، واصبح المرض أنواعا كثيرة، مسـتعجل... نصـف مستعجل، عادي، عربي، بالعملة الصعبة، بالمصري...

ذهبنا على طبيب شهير جداً، أشـهر مـن مسـحوق (رابسو)، كان يظهر في التلفزيون كثيـراً، ويتحـدث فـي

الإذاعة كثيراً، ويكتب في الصحافة كثيراً، ويزور إسـرائيل كثيراً، كان يعرض الاستشارة بخمسـين جنيهـاً، ووصـلت أتعابه لبعض المرضى في أسبوع إلى خمسمائة جنيه.. ولما تعجبنا قالوا:

ـ ولم لا.. انه يشفي الجنون، وفي هذا معجزة، وربما كان يصنعه ليشفيه... وفي هذا معجزة أخرى...

قلت متبعاً للعم عبد القادر:

ـ أنهكنا التفكير وهدنا الترحال وآن لنا ان نستجم...

دخلنا إلى دار للاستجمام، وجدنا بهـا آلات كهربيـة للتخسيس، وأماكن للتدليك، وحمام بخاري حـديث (سـونا) مطعم ارستقراطي وبار، علمنا كذلك انهم يوفرون الصـنف لمن يهوى ان يغيب عن هذا العالم... قالوا ان هنـاك بناتـاً صغيرات، جميلات وشـقراوات، يـدلكن الأقـدام، يبـردن الأظافر، ويعملن على إزالة النتوءات المعروفة باسم (الكاللو) من الأقدام المرهقة، غير ان هذا المركـز كـان يتقاضـى أسعاره بالين الياباني... ولما سألنا عـن السـبب قـالوا لأن أجهزته وبناته مستوردين من اليابان، بلاد الشمس المشرقة.

صارحت العم عبد القادر بإرهاقي الشديد وبأنني غير قـادر على متابعة هذه الرحلة المضنية، ابتسم في هدوء وقال:

ـ هون عليك... هذا مقصدنا الأخير...

تتبعنا الطرق إلى حي الدقي، وعنـدما اقتربنـا مـن المكان أشار العم عبد القادر بيده اليمنى إلى بنايـة شـاهقة، شاهدت جنوداً كثيرين، سيارات مصفحة، خـوذات وشـباك وسواتر ومدافع مضادة للطائرات، وشاهدت علمـاً غريبـاً يرفرف في السماء... انتابني غثيان شديد، انثنيـت ممسـكا ببطني، حاولت جاهداً التحكم في نفسي، غير ان الأمر كـان أقوى مني ان امسك بزمامه، فانفلت قيء يغطي المكان، قيء عفن قميء نتن مليء بحبات الفول ولون العـدس، انـدفعت وحدة الأمن المركزي القريبة نحوي، انتصب أمين الشـرطة قبالتي سألني عن الهوية الشخصية، جواز السـفر وتـذكرة التحصين ضد المرض، ولما أبرزت مستنداتي حملقوا فيهـا، دفعوني بكعوب بنادقهم وقالوا:

ـ ثانية مرة، أتعلم تختار الأماكن اللي تتقيأ فيهـا يـا كلاب.

مضينا إلى حال سبيلنا، أجر أقدامي في تخاذل وانهزام وصبر مر.. كانت معدتي ما زالت تـتقلص، وآثـار مـن عصارة مرارتي الصفراء تبدو واضحة على ملابسي...

وجدنا أنفسنا على أبواب القاهرة، في المقابر، تلك التي اصطلحوا على تسميتها:

ـ »مدينة الموتى«. هرع نفر ممـن يسـمونهم فـي الصحافة المصرية والأجنبية »سكان المقابر« ساعدوني على النوم، دثروني، هدءوا من روعي وأدفأوا مفاصلي البـاردة، حل الظلام، وغبت عن الوعي.

ولما استيقظت وجدتني على سريري، في وضع مثني، أطرافي باردة، جسمي يرتعش، ينتفض، ويتفصد عرقاً، كان وجهي ازرق اللون، شفتاي سـوداوان، عينـاي محمرتـان وبصدري ألم شديد... تحلقتني أمي وزوجتي وأبي وأختـي وأولادي... كانوا مفزوعين،، صرخ أبي:

ـ هاتوا دكتور...

قلت وأسناني تصطك:

ـ لا عليكم، شفت في المنام مشهد عنيف.

أتت أمي بكوب شاي وقالت:

ـ اشرب... اشرب يا بني... هون عليك...

سألتها وأنا ابتسم:

ـ هو ده شاي برحيق ملكات النحل؟

بانت على وجهها علامات دهشة وتعجـب، ابتسـمت وردت:

ـ جرى لك إيه يا أمين؟ إنت بتهلوس؟

ارتشفت الشاي، درت بالكوب حوالي البيت في حركة مسرحية، سألت أبي وأمي وزوجتي ان يتذوقوا الشاي، قلت لهم:

ـ والنبي تلاقيكم بتشتروا رحيق الملكـات وبتخبـوا علينا..

ضحك أبي عالياً وقال:

ـ والنبي من زمان وإحنا مشتاقين لنكتك...

زعق الديك الرومي في عشته... قلده ابنـي الأكبـر بطريقة كوميدية، سمعت هسيس بخار المـاء تأملتـه وهـو يخرج من براد الشاي، مسحت الجدران بيدي فطالـع فيهمـا وسخ شديد، ارتشفت الشاي في هدوء، نادى بـائعي الخـس والبرسيم والبطاطا والبرتقال والطماطم على بضـاعتهم، دق

النجار مساميره في الخشب العاصي، كوى الكواء الملابس الملونة والسوداء، ودخلت الشمس علينا الحجرة فانتبهنا إلى ان اليوم قد انتصف.

الفصل الثامن

المقـــاولات

كانت بشعرها الأصحر، الأسمر المائل للحمـرة، مثار اهتمام كل الدفعة طلاباً وطالبات، كنـا فـي المدينـة الجامعية نتسابق للفوز بالحديث معها، أو الجلوس بجوارهـا في قاعة المحاضرات، أو الوقوف بجانبها في معامل الكلية، كانت بوجهها الأبيض المليء بالنمش وشعرها الأصحر الذي ورثته عن أبيها الأمريكي الذي ترك أمها لسـبب أو آخـر، كانت عصبية المزاج، لا تمـل الكـلام والحركـة، تـرطن بالإنجليزية في مهارة مكنتها من استيعاب معظم الدروس مما جعلها مركزاً للحسد.

ولما انتصف بنا زمن الدراسة في كلية الطب وصرنا في أوائل السنة الثالثة اختفت نادية فجأة، كانت ولهة بالنجوم، النجوم بشكل عام، فعرفنا أنها تزوجت من نجم كـرة قـدم شهير، ثري، وذهبا إلى أمريكا لقضاء شهر العسل، غير أننا عرفنا فيما بعد أنها استمرأت الحياة هناك فقررت البقاء في أمريكا لبضعة سنوات لم يحتملها الزوج حيث كان في هـذا تعطيل شديد لمباريات فريق، كما ان البعد عن الوطن يـؤثر على نجوميته، دارت الأيام ومرت، وفجأة ظهرت نادية مرة

أخرى على مسرح الكلية التي كانت مجالاً خصباً لفـورات سياسية، ومناظرات صحفية بالغة الحماسة، فوجئنا ما فوجئ معنا الكثيرون بأن نادية بنت الذوات وسليلة الأمريكان تهـتم بالسياسة، وما كان هذا اهتماماً خالصاً لأنها حرصت على ان تقرنه بإعجاب غامض بنجم سياسي لامع، كان يملـك مـن الوسامة وعذوبة اللسان، ما يمكنـه مـن اجتـذاب القلـوب المشتاقة، لكن نادية حرصت على اختطاف الأضواء من نجم مسرحي جامعي وسيم الملامح، شاعري النظـرة ذو ثقافـة ألمانية. كان هادئاً مطمئناً واثقاً من نفسه. وبعد ان اسـتمرت العلاقة بينهما بضعة شهور اكتشفت نادية ان النجم الجديد لا يغار وله بروض الإنجليز، وله ايضاً معجبات من كل حدب وصوب، فانفضت عنه انفضاضاً مؤدبـاً حضـارياً راقيـاً، وغابت، في هذه المرة غابت داخل مصر، لم نكن نعرف أين راحت، لكن كنا واثقين إنها لم تترك ارض الـوطن، ومـن يومها وأنا لا اعرف شيئاً عن أخبارها.

أثناء دوامة البحث المضني عن الأصـدقاء القـدامى، وفي لهاثي المتتابع لاسترجاع ماض حبيب مرت عليه سنون طويلة، استطعت ان اهتدي إلى رقم تليفون نادية، كان بيننـا

عشم واحترام، كانت تعرف إنني بطبعي مستقل رغم انتمائي الوجداني إلى تلك المجموعة من دفعتنـا، تشـجعت، وفـي محاولة مستميتة للتشبث بجذور الماضي، ولطرق الأبـواب القديمة التي لا ترد، أدرت قرص التليفون، وجـاء صـوت نادية على الناحية الأخرى متعجلاً، وكأنها هي لم تتغير..

ـ ألوه...

ـ أيوه... مين بيتكلم؟

ـ أنا... حذري أنا مين؟

ـ مش عارفة، مين بيتكلم؟

ـ أهلاً يا نادية، انا شاعر الكلية القديم، الثائر الهمام، الغائب عن ارض الوطن اكثر من ٨ سنوات.

ـ انا مش مستعدة أخمن، الشعرا كثير، الثوار الكثـر، والغايبين لا بيتعدوا ولا بيحصوا...

ـ إذن... انا مش هغلبك، انا أمين جابر (كان اسـمي متميزاً، فلم يكن هناك أمين جابر آخر في دفعتنا).

صرخت في التليفون قائلة:

ـ مش معقول، إزيك يا أمين، إنت بتتكلم منين؟

ـ من هنا.... من مصر...

ـ رجعت امتى؟

ـ من أسبوع؟

ـ وأخبارك إيه؟

ـ أخذت شهادة الزمالة الملكية للباطنية مـن لنـدن، متجوز زي ما إنتي عارفة، وعندي أربع ولآد.

ـ مش معقول، ألف مبروك، لازم أشوفك ضروري.

ـ طبعاً، أمال انا بتكلم ليه؟ إنت ساكنة فين يا نادية؟

ـ إحنا هنا في مصر الجديدة، هات مراتـك والـولاد وتعالوا.. سلامة بيسلم عليك قوي.

ـ سلامة؟

ـ سلامة جوزي، ا إنت مش عارفه؟ إحنا اتجوزنـا من زمان...

ـ حاولت ان أتذكر من هو سلامة، وأي من النجـوم كان، ومتى التقينا، لكني فشلت، فاستدركت نادية قائلة:

ـ سلامة عارفك كويس قوي، هو خريج حقوق، فاكر لما كان بييجي مدرج الطب؟

وهنا فقط تذكرت ذلك الشاب النحيف القصير القامـة الخمري البشرة، المنحدر من أقاصي الصعيد، ذو لهجة حلوة

متميزة، كان من أسرة فقيرة جداً، وكان من أكثرنا معاناة، لم يكن نجماً بالمعنى المفهوم، لكنه جاهد وناضل وحارب كـي يكون نجماً، تـذكرت بالتحديـد يـوم حضـر إلـى قاعـة المحاضرات التي كانت تغص بالطلاب المتظـاهرين، كـان يتوكأ على عكاز، ساقه ملفوفة بكم ضخم من القطن والشاش، صعد متأنياً إلى خشبة المسرح، امسك بالميكروفون لـيقص علينا قصة محاولة اعتقاله وهروبه، والمعركة الدموية التـي دارت بينه وبين رجال المباحث، مما أدى إلى إصابته إصابة بالغة في ساقه، كان نجماً في مشيته، في إلقائه، فـي نبـرة صوت، وفي الأثر النفسي الذي أحدثه يومها... كان على حد علمي منتمياً إلى جماعة شيوعية شديدة الحماس جلهـا مـن المثقفين والطلاب، وكان هو بفطرته وذكائه وطبيعة ظروفه من أكثرهم إيمانا بمبادئه، بل عله ولد ليكون اشتراكيا حتـى نخاعه، وفي الحقيقة ان كثيراً منـا كـان لا يملـك سـوى الإعجاب بسلامة، سلامة المفكر، والمكافح، الفقير، والـذي عانى اشد معاناة... للحظة اضطر تفكيري، هززت رأسـي وحاولت الجمع بين سلامة ونادية، كيف؟ وأين؟ ومتى؟ ربما هو الحب والتجاذب، ربمـا تغيـرت ناديـة، ربمـا تغيـر

سلامة؟... المهم تواعدنا على اللقاء اصطحبت زوجتي الهام ومضينا في طريق مصر الجديدة إلى العنوان الذي أعطتـه لي نادية فهمت من العنوان إنها فيللا، وما ان اقتربـت بنـا سيارة التاكسي حتى شاهدت فيللا بيضاء من طابقين وسـط حديقة خضراء جميلة، وفي الخارج سيارة ألمانيـة فضـية اللون... فتحت لنا نادية الباب وهي ترحب وفي نفس الحسين تطيل النظر إلى زوجتي التي لم تكن تعرفها، فنادية لم تكـن مواظبة بالكلية، وأيضا فإن إلهام كانت من دفعـة أخـرى، فقالت:

- أهلا وسهلاً، اتفضلوا، اتفضلوا..

دخلنا الباب الحديدي الزجاجي المزخرف، إلى البهـو المفروش بالسجاد الوثير، كان البهو معتماً تتناثر في أرجائه قطع الأثاث الفخم، تتربع فـي أركانـه أجهـزة التسـجيل المعروفة باسم (الهاي فاي)، قادتنا نادية من البهو إلى غرفة الجلوس، غرفة مضاءة بمصابيح كهربية ذات أشكال متعددة، الإضافة قوية، وتسقط في زاوية محسوبة بعناية على مقاعـد وأرائك وثيرة، في المقدمة جهاز فيديو حديث متعدد الأنظمة، وجهاز تليفزيون حديث ايضاً ومتعدد الأنظمة كذلك، اعتذرت

نادية عن شكل البيت الغير منظم حيث ان ابنها بـاهر دائـم الحركة كثير الشقاوة، وما ان انتهت نادية من كلمتها حتـى فاجأنا باهر البالغ من العمر سبع سنوات، مصـافحاً كلانـا بحرارة رجولية، كان يرتدي زياً عسكرياً مكتوباً عليه باللغة الإنجليزية »جيش الولايات المتحدة الأمريكية« لونه كـاكي فاتح وتزينه نجوم رمزية مطرزة، قال باهر:

ـ أهلاً وسهلاً، إزيكم، شرفتونا، انتم بقى جايين مـن أمريكا واللا من لندن؟

ابتسمت مجيباً:

ـ من لندن...

ـ قال باهر وهو يعدل من وضع بنطلونه القصير:

ـ في الحقيقة لندن مش متقدمة زي أمريكا، أمريكـا بصراحة حاجة ثانية، انا رحت لندن قعـدت هنـاك ثـلاث اشهر، لكن لقيتها مملة، أمريكـا مثيـرة، مثيـرة جـداً... استغرقتني الدهشة الشديدة لأسلوب باهر، خاصة وأنه كـان بيتكلم بيديه ويشير بأصابعه كما لو كـان رجـلاً ناضـجاً، أمسكت بيديه، جذبته إلي سائلاً إياه ان كان قد زار أمريكـا، ابتعد عني رافضاً تدليلي الطفلي له، جالساً على طرف المقعد

قائلاً:

- آه... طبعاً، انا رحت أمريكا ودخلت المدرسة هناك، حاجة ثانية يا أنكل... نظام كومبيوتر واحترام، إنما هنا، مدرسة خاصة وتعب، كل شوية امتحانات بصراحة بصراحة، هنا التعليم كتير قوي، والامتحانات اكثر، لكن ما بنتعلمش حاجة، أما في أمريكا فالتعليم بسيط قوي لكن بنتعلم كل حاجة.

ضحكت عالياً وسألت باهر ان يفسر لي المقولة الأخيرة!

اغتبط لجهلي، عدل من ياقة قميصه وقال:

- اسمع، التعليم مش قراءة كتب وحفظها وصمها، إنما فهم وممارسة،عارف ممارسة يعني إيه؟ يعني في أمريكا بنقضي الوقت في المعامل نسمع شرايط ونشوف أفلام، إنما هنا على الكراسة وبالخرزانة، حاجة صعب قوي يا أنكل.

وهنا دخل أبوه، سلامة، كان واضحاً انه يزيل آثار نوم الظهيرة عن عينيه، للحظة لم أتعرف عليه، فأنا أمام إنسان آخر مختلف تماماً، إنسان ليس له من سلامة القديم سوى لون العينين وقصر القامة، كان قد انتفخ، وامتلأ بشكل

يصعب تمييزه، فظهر كرشه وامتـد إلـى الأمـام، كبـرت مؤخرته وامتدت إلى الخلف بشكل مزعج، اصـبح وجهـه مدوراً، اختفت رقبته تماماً، كان يرتدي جلباباً حريرياً ابيض اللون، أخذني بالأحضان وتمتم:

ـ أهلا وسهلاً، أهلا وسهلاً... حمد ا ع السلامة يا أمين، إزيك، إزيك يا أمين... كان صوته ايضاً مختلفاً، بـه نبرة عميقة غير محددة، صوت يخرج من الصدر ولا يستمر صداه طويلاً... نظر إلي ثم قال:

ـ ياه .. إنت زي ما إنت ما اتغيرتش...

ضحكت قائلاً:

ـ يمكن.. بس إنت اتغيرت خالص يا سلامة...

جلس إلى جواري بعد ما سـلم علـى زوجتـي، ثـم استطرد قائلاً:

ـ أيوه... اتغيرت قوي... وليه لأه... الدنيا اتغيرت، الأحوال اتغيرت، مصر اتغيرت، الناس اتغيرت، حتى القـيم اتغيرت.

قلت:

لكن إنت بتشتغل فين دلوقتي؟... ثم إيه يا عـم سـر

الثروة المفاجئة دي؟

ضايقته الكلمة جداً، فاسترخى على مقعده مسنداً رأسه على المسند متأملاً الفراغ قائلاً:

ـ دي مظاهر بس يا أمين.. إنت هتعمل زيهم والـلا إيه؟

ـ مش قصدي... هو إنت فتحت مكتب محاماة والـلا إيه؟ ثم اعمل زي مين؟

ـ لأ... انا أخذت شهادة الحقوق عشان أعلقهـا فـي المكتب.

ندت عني ضحكة خفيفة مملوءة بالدهشة والاستغراب، وعاودت سؤال سلامة مداعباً:

ـ لكن... من أين لك هذا؟

ضحك عالياً، استلقى بظهره على مسند المقعد، مسـح بيديه على فخذه في حركة تلقائية قابضاً على قماش جلبابـه الحريري الأبيض، صمت، ثم انحنى قليلاً إلى الأمام وقال:

ـ بمجهودي.. بمجهودي يا أمين، انا تعبـت قـوي، دخلت في مشروع شركة مقاولات مع زميل وبعدين انفصلنا، أهوه، نصيب...

كنت تواقاً لمعرفة التفاصيل، تفاصيل هذه المشـاريع المثيرة التي تجلب ثروة بهذا الحجم، لكن سلامة لم يمهلنـا، وقام إلى جهاز الفيديو وجهاز التلفزيون يفتحهما، يضبطهما، متحدثاً خلال خطوه المتباطئ، قائلاً:

ـ ده شريط فيديو ممنوع، في الحقيقة متهـرب مـن إسرائيل، فيلم تاريخي عظيم عن اضـطهاد اليهـود اسـمه (عازف الناي على السطح، فدلر أون ذا روف).

تجهمت، نملت أطرافي، جف حلقي، وما ان انتبهت إلا وكان صوت الناي وعازفه فوق السطح يملأ أرجاء البهو.

دخلت نادية من الغرفة المجاورة، سألتني في حرارة:

ـ إنما ما قلتلناش يا أمين، إيه سر النبوغ المفاجئ ده يا عم، الزمالة مرة واحدة، ده إنت يعني ما كنـتش غـاوي دراسة قوي في الكلية؟

ضحكت قائلاً:

ـ اهوه... آديني اتعلمت أغواها...

ـ ويا ترى سبت الشعر والقصة والسياسة

ضحكت جداً وقلت:

ـ الشعر آه سبته، القصة بين الحين والحين، والسياسة

دي موضوع ثاني يطول شرحه، زي موضوع شركة سلامة كده...

تحرجت، فوجئت بتعليقي تبادلت نظرة ذات مغزى مع سلامة ثم قامت قائلة:

ـ تشربوا شاي؟

شربنا الشاي في هدوء، كان عزف الناي ما يزال يملأ أرجاء المكان، تبادلت مع الهام نظرة قررنا معها القيـام... أصر سلامة على ان نمكث قليلاً، سارعت نادية إلى التأكيـد على إننا معزومين على العشاء، في الميريديان شكرتها جـداً محاولاً الاعتذار، غير ان سلامة تدخل مصراً ومؤكداً علـى ان الحجز قد تم، وافقنا ومضيت انا وزوجتي.

***

عاودني حنين شديد إلى كليتي، وغمرني شوق حارق، مضيت إلى شارع العباسية وشرعت أخطـو، أدوس علـى الأرض التي أكلات من أقدامي، كنت أحاول الاسـتماع إلـى نبضها كنت أحاول سؤالها: (هل تعرفينني؟ هل تذكرينني؟)، غير ان الإسفلت الصلد بحرارته القاسـية أجبرنـي علـى الصمت، حاولت الاستدلال على المكوجي وبـائع العصـير

وكشك السجائر، غير ان كل هذه الملامح كانت قـد تبـدلت وتغيرت فخلت إنني قد ضللت الطريق... وأثنـاء حـواري الداخلي، خلال توهاني وحيرتي، وارتباكي كـدت اصـطدم بامرأة طويلة بيضاء، رفعت رأسي إليها، وغلبتني الدهشـة والفرحة... فصرخت:

ـ مش معقول.... مين... شاهندة؟

ابتسمت في شبه عدم تصديق وقالت:

ـ أهلا... أهلا يا أمين.. إزيك.. إنت فين يا راجل... أخبارك إيه؟

حكيت لها باختصار عن كل شيء ثم استطردت قائلاً:

ـ عارفة انا شفت مين امبارح؟

ـ مين؟

ـ نادية... نادية السيوفي... وجوزها سلامة عباس.

بانت على وجهها علامات هي مـزيج مـن الدهشـة والاشمئزاز، سألتني قائلة:

ـ وازيا نادية؟ عاملة إيه؟

ـ كويسة... دول حتى عازمينـا علـى العشـا فـي الميريديان...

أشاحت بوجهها قائلة:

- تلاقيه سلامة اللي عازمكم، مش نادية، هي اصـلها دي الأماكن اللي بيرتادها.

- صحيح يا شاهندة هو باين عليه اتغير قوي، لكن انا مش فاهم حاجة؟ إيه سر الاشمئزاز اللي بـاين عليـك ده... وإيه سر الشركات بتاعته دي؟

قالت محتدة:

- إنت بقالك أد إيه في مصر يا أمين؟

- أسبوع... أسبوع واحد بس

تأملتني في حزن ثم قالت:

- علشان كده ما شمتش ريحته، دي ريحتـه، فاحـت وملت مصر كلها... ا .. انا مستغربة انه حتى ما قاللكش.

- قاللي واللا ما قالليش... انا مشتاق قوي اعـرف.. ممكن نقعد في حتة؟

سرنا متجاورين، تذكرت للحظة وجهها الصارم وهي تسير إلى جواري ونحن ندخل إلى مـدرجات الكليـة كـي نخوض الانتخابات، نلقـي الخطـب الحماسـية، والبيانـات السياسية، تـذكرت ملامحهـا القويـة وهـي تحمـل رزم

المنشورات لتقوم بتوزيعها على مراحيض السيدات العامـة بدور السينما والمسارح... اتخذنا لأنفسنا مقعدين حجـريين خلف المشرحة، جلسنا متقابلين، قلت متلهفاً:

ـ هه... هات ما عندك..

صمتت هنيهة ثم جاوبتني:

ـ عارف سلامة ده اللي إنت شايفه، اكبر كـداب... مش بس كده.. ده حقير ومناوئ وقذر... تصور انـه بـدأ مشواره الاستغلالي ده كمقاول أنفار.

سألت بسرعة:

ـ مقاول أنفار؟

ـ أيوه...مقاول أنفار يتاجر في عرق العمال الغلابة، يتاجر في وقتهم وقوت عيالهم، تخيل لما واحد شيوعي قـح يعمل عمله زي دي.. ومن مكسبه ده يكون ثروة يدخل بهـا شركة مع عبد الوهاب مهندس بلدياته من سوهاج... ومـش بس كده... ده الست هانم المحترمة، الممثلة سابقاً... شـوق حمدي... اللي كانت على علاقة بشخصية كبيرة جـداً أيـام عبد الناصر... قال إيه.. سابت الفن ونزلـت بتقلهـا فـي المقاولات، وفضل سلامة يطلع السلم مع عبد الوهاب اللـي

كون شركة سماها (وهابكو) لغاية ما الغيرة دبت بينهم، والسوق احلو ف عينين سلامة، راح مستقل ومكون شركة لوحده سماها (سلامكو)..

قمت متفزعاً قائلاً:

ـ سلامكو ووهابكو... يه ده... إنتي متأكدة من الكلام اللي بتقوليه ده يا شاهندة؟

ـ يعني باأهزر يا سي أمين؟ هم الـ ٨ سنين اللي غبتهم برة غيبوا عقلك واللا إيه؟

جلست مطرقاً برأسي، ناظراً إلى موقع قدمي قائلاً:

ـ لا أبدا... المهم وبعدين شركة سلامكو دي عملت إيه...

ـ عبد الوهاب ما استناش، وقرر لازم يخللي سلامة يدفع الثمن.. ثمن إستقلاله.. ما هو اصل رجال الأعمال الجدد دول بعيد عنك نظام سمك، الكبير يأكل الصغير... طبعاً الست هانم شوق حمدي ساعدت عبد الوهاب، فضلوا يجروا ريق سلامة في السوق ويفتحوا له الطرق المقفولة لحد ما مشى حاله وبنى عمارتين.

ـ عمارتين بحالهم، وهم فين دول؟

ـ آه... ما هو زي ما كسبهم بسرعة زي ما خسرهم بسرعة...

ـ إزاي يعني؟

ـ يعني ده جزء من اللعبة القذرة اللي حطمـت فيهـا شوق حمدي وعبد الوهاب.. سلامة وطيروه خـالص مـن السوق...

ـ وبعدين هو عامل إيه دلوقتي؟

ـ انا بصراحة ماعنديش أي تفاصيل، لكن اللي اعرفه انه مهزوم وتعبان...

هززت رأسي في مزيج من الدهشة والحيـرة وعـدم الاستيعاب، سألت شاهندة:

ـ يعني الصورة كده كلها قاتمة؟

ـ لا بالعكس دول مثل على الناس اللي كانوا بيهاجموا اليسار القديم بضراوة، طلعوا هم أزفت منـه، لكـن مـنهم برضه طلع افضل الناس، عندك مثلاً الدكتور فهمـي قاسـم بعدما اخذ دبلوم الباطنة فتح عيادة شعبية في شبرا الخيمـة، بـ ٥٠ قرش الكشف في زمن الطـب بقـى تجـارة غيـر محترمة، وبصراحة أهل الحي شـايلينه علـى رؤوسـهم،

وعندك كمان د. مجدي عبد العال اللي مالوش دعوة بالسياسة خالص ومعاهوش أي شهادة تخصصية بقى مليـونير لأنـه عرف ان الناس الغلابة بتتغر في الكشف الغـالي، وعمـل كشفه عشرين جنيه.. تصور..

بلعت ريقي، سألت شاهندة ان كنا نسـتطيع مغـادرة الكلية، مضت هي إلى موقف الأتوبيس، ومضيت انـا إلـى حارات حي المحمدي االكائنة خلـف الكليـة، تطفـح فيهـا المجاري، يسيطر عليها الناموس، ويجري فيها العيال شـبه عرايا... أزحت من على وجهي قوافل الذباب وراقبت طفلاً يصرخ وآخر يضحك في عصبية بعدان انتزع منـه لعبتـه الخشبية...

***

توجهت انا وإلهام إلى قاعة الطعام الفخمة بقلب الفندق الفخم، كانت اشد إضاءة وبهجة وزينة مـن اكبـر مطـاعم أوروبا، جلت بناظري ما بين السقف وما يتـدلى منـه مـن ثريات عجيبة الشكل وكأنها ثريات قصور الأمراء السابقين، تقدم منا (المتر) في هيئته الكاملة، سألنا في أدب جـم عـن الاسم، فأجبته في هدوء:

ـ د. أمين جابر وحرمه، اعتقد ان الأسـتاذ سـلامة عباس حاجز ترابيزة.

رفع هامته في أدب شديد ثم قال:

ـ أيوه... أيوه.. يا أفندم سلامة بك... اتفضلوا مـن هنا يا أفندم.

قادنا إلى منضدة دائرية في وسـط المكـان، كانـت الإضاءة مبهرة إلى حد منعني عن الكلام فشـرعت أجـول ببصري في الحوائط، وفي السجاد المفروش، وفـي النجـف المعلق من السقف والمثبـت فـي الحـوائط، فـي تطريـز المفارش، في وجه السفرجية ذوي الأردية الحريرية يرفلون فيها في أدب وبسرعة متقنة، في الخلفية انبعثـت موسـيقى غربية خفيفة، لا اعرف كم من الوقت مضى، لكني وجـدت سلامة ونادية أمامي، كان سلامة شديد الشبه بتجار السـلاح وكانت هي كزوجة أوروبية تتأمل زوجها في إعجاب.

ما ان جلس سلامة ونادى حتى سارع (المتر) في أدب إلى المنضدة منحنياً على سلامة، قال سلامة:

ـ كالعادة...

نظرت إلى إلهام، ثم إلى نادي، ثم توقفت عنـد وجـه

سلامة متسائلاً:

ـ عادة إيه؟

ـ إيه يا أمين، إنت شاغل بالك ليه؟ بيـره... بيـره ساقعة...

ـ بس انا ما بشربش.

ضحك مستهزئاً ثم أعقب قائلاً:

ـ إنت لازم بتهزر، تبقى جاي مـن بـلاد الإنجليـز وتقوللي ما بتشربش... واللا خايف من مراتك؟ قوليلـه يـا مدم.. البيرة مش حرام... دي مجرد فتح شهية... هي المدام برضه ما بتشربش؟

بدأ الإحراج على وجه إلهام، نظرت إلي ثم ردت:

ـ لأ.. في الحقيقة إحنا مش واخدين على الشرب رغم اختلاطنا بالإنجليز...

قهقه سلامة عالياً ناظراً إلى نادية التـي عـدلت مـن شعرها المصفف بعناية، ساعتها أدركت إصرار نادية علـى الاحتفاظ بالنجومية لنفسها ومن خلال من يتزوجها، نعم، ها هو سلامة بكامل هيئته رغم كل ما قيـل عنـه مـن انـه مهزوم... ها هو نجم، نجم مجتمع ميسور، يأمر وينهـي...

كنت قد استسلمت لخيالاتي حتى أيقظني منها سلامة بصوت الخشن متسائلاً:

ـ إلا قوللي يا أمين، انتو ما درستوش تفسير الأحلام في لندن؟

قلت غاضباً:

ـ تقصد إيه؟

رد في حنو مفتعل:

ـ اقصد يعني كجزء من دراستك للباطنة؟

ـ آه... أخذنا جزء بسـيط قـوي فـي الأمـراض النفسية... إنما بتسأل ليه؟

مد سلامة يده إلى الزيتون الأسود، تجرع من البيـرة، تجشأ، ثم نظر إلى نادية التي كانت مطرقة قائلاً:

ـ في الحقيقة فيه حلم مزعج قوي، ممكن تقول عنـه كابوس، كابوس مزعج قوي، يكاد يحطم حياتنا.

ـ ومين اللي بيحلم بيه؟

ـ انا ونادية...

ـ انتو الإثنين؟ إزاي؟

ـ ما أقصدش، هو زي كابوس مزعج يكـاد يكـون

متطابق بيطاردنا إحنا الإثنين...

ـ خير... انا طبعاً مش خبير، لكن عندي فكرة مـن كتاب تفسير الأحلام لفرويد.

انحنى سلامة إلى الأمام قليلاً، أخذ رشفة من البيرة ثم قال:

ـ شوف يا سيدي.. الحلم مضمونه ان انا ونادية بناكل من جثة، جثة إنسان منتنة والجثة دي ما بتخلصش رغم إنها شديدة العفن..

بان على وجه الهام الاهتمام، نظرت إلى نادية التـي كان منشغلة في مطالعة تطريز مفرش السفرة، صمت لدقائق ثم قلت لسلامة:

ـ الكابوس ده مش محتاج خبير عشان يفسره، يبـدو أنكما متورطان في علاقة سيئة مع ناس سيئين..

وكأن نادية وسلامة قد أحسا بـالوجع، فبانـت علـى وجهيهما علامات توتر وتجهم وضجر، غير ان سلامة همهم قائلاً:

ـ ده صحيح...

كنت قد قررت مواجهة سلامة بما سمعته، اقتربت منه

وقلت في هدوء:

ـ انا سمعت كلام عن شركتك وتورطك في علاقة مع ممثلة سابقة ومع بادياتك المهندس عبد الوهاب وعن تجارتك في العمال.

أزاح كرسيه في عصبية ثم قال:

ـ تجارتي في العمال؟... مين اللي قال لك الكلام ده؟ سلامة.... إنت قابلت مين النهاردة؟

قال هذا في غضب مشيراً بإصبعه ناحيتي، قلت فـي حرج"

ـ أبدا مجرد ناس عادية.

صاح في غضب:

ـ لأ... دول مش ناس عادية، دول الرفـاق وإنـت صادق... كانوا الأساتذة بييجوا يطالبوني بفلـوس... مـرة عشان ما يهاجمونيش ومرة عشان الجماعة، وبعضهم سألني على شغل.. وبصراحة الشغل في المقاولات مابيحبش التردد والدخلاء، فاتخلصت منهم...

ـ شغل إيه... واتخلصت من مين؟

ـ اتخلصت من علاقتي بالمدعين، والشغل كان بنـاء

صالة المطار، ومبنى الجوازات الجديد، وفندق الشقرا..

ابتسمت ناظراً إلى نادية، التي سارعت بسؤال الهام:

ـ إنما انتم إيه اللي جابكم؟

ابتسمت إلهام قائلة:

ـ أبدا إحنا ما جيناش... إحنا في إجازة...

تدخلت قائلاً في حدة:

ـ آه إحنا في إجازة الغرض منها ترتيب الجو للعودة النهائية...

نظرت إلى إلهام في حدة التقطها سلامة بسرعة ثم قال لي:

ـ يا أخي... يا أخي... يا أمين.. حافظ علـى بسـمة أولادك... حرام تهينهم في البلد دي.

ـ أهينهم... ويطلعوا من غير وطن ولا كرامة؟

ـ مين قال كده؟ ابقوا تعالوا شهر، شهرين، إجازة كل سنة... هو يعني ما يبقاش وطن إلا إذا عشـتم فيـه... دي المسافة من لندن للقـاهرة اقـرب واسـهل مـن القـاهرة للإسكندرية...

مسحت عرقي بمنديي، ثم وجهت سؤال إلى نادية:

- طيب وانتم... بتحافظوا على بسمة باهر إزاي؟

ضحكت نادية ثم قالت:

- إحنا مسافرين، رايحيـين أمريكـا، سـلامة بـاع العمارتين وهيشغل الفلوس في نيويورك.

قلت في دهشة:

- باعهم وهيشغل الفلوس المصري في نيويورك؟

رد سلامة في صرامة قائلاً:

- أيوه... عجيبة دي... أبو نادية هنـاك لـه نفـوذ وهيسندني...

مضغ سلامة المزة، ارتشف البيرة، تجشأ ثم قال:

- أيوه... زي ما بيقول أصـحابك "الحلـم.. الحلـم الأمريكي".

ما ان انتهينا من طعام العشاء، حتى قمنا نحن الأربعة إلى سيارة سلامة المنتظرة، حياه الحارس، وحياه بائع الفل، وحياه رجل غريب مسح السيارة بسرعة، بقطعة من القماش الجلدي داعياً له بالخير والسلامة، نفحهـم سـلامة جميعـاً بقشيشاً وقادنا إلى شقتنا مذكراً إيانا بضرورة الاتصال قبـل السفر...

ما ان خطوت نحو باب العمارة متأهباً للصعود علـى السلم حتى اهتزت خطواتي، فقدت توازني، نظرت إلي إلهام مندهشة متسائلة:

ـ مالك... مالك يا أمين.. دا إنت حتى ما شربتش؟

قلت في تعب:

ـ لأ ما شربتش صحيح، لكن حاسس باختناق... انـا هتمشى شوية..

صعدت الهام الدرج، مضيت انـا مخترقـا الـدروب متأملاً بائعي الذرة المشوية، جامعي أعقاب السجائر، بـائعي اليانصيب، متأملاً في الأرض والسماء وما بينهما في غضب شديد.

الفصل التاسع

الديب محمود

غبت عن مصر ثماني سنوات لم تنقطع فيهـا عنـي رسائل صديقي القـديم "الـديب محمـود"إلا فـي السـنتين الأخيرتين، فجأة حل الصمت، ووجهت بعدم الـرد المطلـق على رسائلي...

كنت أعرف انه هناك، وأنه مشغول، لكن مـا كنـت أتصور انه سيقاطعني، كان الديب محمود صديقي وحبيبـي وضميري منذ نعومة أظفاري، كان فلاحاً متوسـط الحـال، يملك هو وأهله قطعة ارض على حافة صحراء الهرم بمنطقة الكرداسة، كان يجمع بين حناياه خشونة الصحراء وقسوتها، وحنو الأرض الخضراء وعطفها، كان ايضاً يعمل مدرسـاً بالمدرس الابتدائية الوحيدة هناك، وكان كذلك ناقداً أدبياً فنياً أصيلاً، دائماً ما كنت أعرض عليه محاولاتي المتعثرة فـي كتابة القصة القصيرة، وكان دائماً مـا يـدلي برأيـه علـى استحياء خشية ان يجرحني، ورغم أنني صارحته عدة مرات بتشككي في صدق ما يقول، وخوفي مـن ان تكـون آراءه مغلفة بمحبتنا وصداقتنا، كان معي دائماً وأبداً حتـى وهـو غائب كان معي، كان له رأي في حماسي السياسـي البـالغ ونشاطي الذي أدى إلى سجني بضعة شهور، كان يرى أنني

أبالغ بعض الشيء في تصوراتي المستقبلية، وإن علي أن أهدأ قليلاً رفقاً بوالدي، كان متحفظاً إلى حد بعيد تجاه أفكاري الاشتراكية، ولم يعني هذا إطلاقا أنه بلا لون، على العكس، كان الديب محمود واضحاً وصريحاً وقاطعاً كالأرض التي جاء منها يفلحها لتعطيه، ويعطيها لتفيض عليه، كان مصرياً خالصاً استطاع ان يجسد فلسفلة الوطن والفكر في شخصه ووجدانه وعمله، حقاً كان الوحيد منا يهرب من الأسئلة المتعددة حول اتجاهاته السياسية بالإجابة (انا مصري... لا يميني ولا يساري...) كنا نعرف انه لا غضاضة البتة في ان تكون مصرياً اشتراكيا، لكن ثمة حواجز قلبت الموازين على عقب لا لشيء إلا لأنه كان من الصعب على كثير من الاشتراكيين المصريين صياغة رؤية خاصة لهم، وهكذا كان الديب محمود دون ان يدخل إلى معترك الحياة السياسية، لكن بفضل ان ظل شاهداً عليها لفترة طويلة مكنته من التأمل الحذر والترقب الصارم، يوم دخلت السجن لأول مرة أرسل لي مع أمي رسالة يقول فيها:

- السجين حر داخل القضبان والحر سجين داخل إطار وهمي من الحركة.

كانت هذه الكلمات بكل ما تحمل من معانٍ كافية لشـد أزري وتقويتي في مواجهة الأمور الصعبة وقتها. كان الديب محمود معي وحولي دائماً فـي مهرجانـات الكليـة الفنيـة والثقافية، في حفل زفافي، وليلة ان تركت ارض مصـر... ولم يخطر على باله يومها إنني سأمضي وسـأغيب هكـذا ثماني سنوات.

سألت إلهام:

ـ ترى ماذا يكون السبب؟ ماذا يكـون السـبب وراء انقطاع رسائل الديب؟

قالت:

ـ المسألة واضحة ومش عايزه تفسير... الراجل رمى طوبتك خلاص، الرسائل مهما كانت لا تقيم صلب علاقة...

قلت صائحاً في غضب:

ـ لكن دي مش مجرد علاقـة، ده عمـر، ده توحـد وجداني، ده....

ـ بس صبرك علي شوية، دلوقتي الراجل قاعد فـي مصر، بيفلح أرضه، وبيدرس تلاميذه، وإيه عرفنا إيه كمـا شاغله، وإنت قاعد برة بتدرس أو بتشتغل في حيـاة ثانيـة

خالص، تسمح تقوللي إيه اللي يربطه بيك؟

لم أتحمل كلمات إلهام فصحت غاضباً، وتركت البيـت لا تمشى في شوارع لندن الضبابية، كـان المطـر ينهمـر غزيراً، وكنت في حيرة، غير ان ثمة شـيء دفـين بقلبـي ووجداني يشدني ويطمئنني.

***

كان الديب محمود في انتظاري في بيتنا القديم، كنـت متيقناً انه سيكون هناك ورغم ذلـك فلـم اصـدق عينـي، احتضنته، تأملته، تركت، ثم احتضنته وتأملته وتركته، كنت اربت على ظهره، أضمه، أشمه، أشم عطر الأرض فيه، كان يهدئني ويحدثني ويبتسم، كان أبى يبتسم محيياً صديقي الحميم الذي ما برح يزوره ويطمئن عليه في غيابي، سألني الـديب في اهتمام:

- وأخبارنا في الخارج إيه؟
- أخبار مين؟
- أخبار مصر، والأحزاب السياسية والانتخابات.

كان الديب مهتماً بشكل حفزني إلى الرد بإجابة أخرى:

- في الحقيقة انا عدلت عن العمل السياسي المباشـر

منذ مذبحة صبرا وشاتيلا

تهلل وجه أبي وقال:

- الحمد يا بني... الحمد انك بعدت عن المواضيع دي...

التفت فجأة إلى أبي قائلاً:

- ده ما يعنيش أبدا إن أنا انسلخت عن جلدي، انا بس غيرت من طريقتي...

تدخل الديب في حدة وفي أدب كعهده قائلاً:

- لو سمحت... لو سمحت... أريد ان افهم معنى المباشرة، وأيضا أريد أن أعرف لماذا منذ المذبحة؟

اعتدلت في مقعدي ثم نظرت إليه قائلاً:

- على العموم الموضوع يطول شرحه، لكن باختصار انا كنت مشارك في العمل السياسي في الخارج بكل ما املك لحد أتنني كنت اطبع النشرات الفاضحة لسياسات إسرائيل على حسابي، وفجأة... وجدت نفسي وحيداً وسط المنظرين والمدعين والأساتذة والكذابين، ووجدت كثيراً من الأساطير تصبح مجرد كلام يلوكه البعض في جلسات العشاء، وفي لقاءات بعواصم أوروبا فقررت الانسحاب من كل شيء

بهدوء.. بعد مذبحة صبرا وشاتيلا أصـبت باكتئـاب حـاد وانتابني فزع وإرهاق، لم انم لمدة أسـبوع، وكنـت أتقيـأ باستمرار...

دخلت أمي مفزعة تقول:

ـ خير... خير يا أمين... إيه الكـلام اللـي بتقولـه ده؟... قيء إيه وإرهاق إيه ده...؟

ـ رد عليها الديب مطمئناً:

ـ ماتخافيش يا ماما، ده أمين بيحكي عن دور بسـيط أصابه والحمد   خف منه... هه... كمل يا أمين..

ـ أبدا... جلست ثلاثة ليال متتالية اخرج أحرر نشرة من ٤٢ صفحة تضم ما كتبته الصحافة العالمية عن المذبحة وعندما خرجت النشرة إلى النور لم يساهم فيا أحـد بملـيم واحد، حتى الفلسطينيين..

ـ وهل هذا الذي نحاك عن العمل المباشر؟

قلت في هدوء:

ـ لأ.. لكنه القشة التي قصمت ظهر البعير...

ـ ما عليك يا أمين، تعال نتمشى شوية.

تدخلت الهام قائلة:

ـ معهاش يا أستاذ ديب، اصل إحنا رايحين نشـوف مسرحية (ريا وسكينة).

تفزع الديب، غير انه التفت في أدبه المعتاد قائلاً:

ـ خلاص يا دكتورة، لكن ليه بالذات المسرح الطفيلي ده؟

ردت الهام متعجبة:

ـ طفيلي ليه، دي شابة وعبـد المـنعم مـدبولي... مسرحية كوميدية..

ـ أيوه ما انا عارف، لكنها بلا هدف..

ـ هو لازم كل حاجة يكون لها هدف؟

ـ في رأيي المتواضع آه طبعاً، خاصة حينما تكـون كل الأشياء في بلادنا الآن بلا هدف... عمومـاً لا عليـك... معذرة..

تواعدنا انا والديب على لقاء بقاب قريته، وما ان مرت الأيام حتى كنت هناك وفي طريقي إلى محطـة الأتـوبيس التقيت بأخي الديب الأكبر عبد السلام وكان يعمـل مدرسـاً لفترة في اليمن، حياني بحرارة وأخذني إلى مقعـد بوسـط الأتوبيس، عرف ان الديب قد رآني، سألته عن سر انقطـاع

مراسلته لي فجأة حيث ان الوقت قد أخذنا بالأمس ولم أتمكن من سؤاله، ضحك عبد السلام وقال:

- مشغول، الديب مشغول جداً، إنت مش عارف انه أمين لجنة الأدب والثقافة بحزب اليسار عن محافظة الجيزة واللا إيه؟..

أبديت دهشتي ثم قلت:

- لا في الحقيقة ماعرفش.

ضحك عبد السلام مرة أخرى ثم قال:

- لأ ونشاط واجتماعات وانتخابات، وبصراحة إحنا مش مستريحين لأن الديب اتطرف قوي.

سرحت بنظري من نافذة الأتوبيس متأملاً الحقول الخضراء، وقلت لعبد السلام:

- عموماً هو يعرف اكثر..

نزلنا إلى القرية مشينا حتى بيت الديب، استقبلتني زوجته وأولاده الستة بترحاب شديد، ايضاً أناس كثيرون اعرفهم ولا اعرفهم من أهل القرية جاءوا ليحيونني ويهنئونني بسلامة العودة، خلت قاعة البيت إلا مني والديب، ناولني كوب شاي قائلاً:

ـ وا زمان يا دكتور..

كنت منشغلاً بالتطلع إلى الحوائط والملصقات عيهـا، رموز حزب اليسار، مجلات لجنة الثقافة المواجهة، الصمود، أعداد من جريدة اليسار، كان البيت حيـاً ونابضـاً، سـألت الديب:

ـ ترى أين تحتفظ بأوراقك القديمة؟

أجاب بسرعة:

ـ خلف الأبواب القديمة؟

قلت مبتسماً:

ـ وأين هي؟

ـ خلف المندرة... أخشى ان تكون قد أكلتها الفئران..

تفزعت قائلاً

ـ لأ... دا انا مشتاق جداً لمطالعة أعمالك وأعمـالي القديمة...

ابتسم وقال:

ـ هذا ممكن، لكن المستحيل هو ان تجد أيـة أعمـال جديدة.

قلت:

ـ لماذا؟

ـ لأني توقفت عن كتابة الأدب، هناك أشـياء كثيـرة تسير بسرعة وعلينا ان نرصدها، انـا لا اعنـي ان نهمـل الأدب، لكن يهيأ لي ان دوره يتواري لما هو أهـم مـثلاً ان يعرف أولادك النصف خواجات ما هي أسباب التخلف الشديد الذي نعانيهـ.. نكست رأسي، فربت الديب محمـود علـى ظهري مطمئناً:

ـ أنا لا اقصد شيء بأولادك، الصفة بريئة ولا تعنـي إلا صدمتهم من رؤية وطنهم في أول رحلـة لهـم خـارج لندن...

خرجنا نتمشى بجوار الترعة، حيانا عبد ا وهو يعمل جاهداً بالشادوف، توقفت ارقب نقاط التقاء الأرض الخضراء الرطبة بالصحراء المهيضة الساخنة وقلت للديب:

ـ هذه منطقة شديدة الخصوصية، يتعشق فيها الطمي بالرمل...

ضحك الديب عالياً وقال:

ـ نعم يا شاعرنا القديم، ولهذا فإنهم جاءوا ليساوموني عليها لصالح مشروع سياحي.

ـ صحيح..

ـ نعم... والمسألة اخدت جهد كبير حتى عرفوا انهـم أمام ناس كالصخر.

مضينا متجاورين حتى وصلنا إلى حديقـة الليمـون، عدل الديب من وضع جلبابه،إ لاف سيجارته، نفث دخانها في هدوء ثم قال:

ـ يا ترى أتيحت لك فرصـة الإطـلاع علـى أدب الشباب في مصر في الفترة الأخيرة؟

قلت:

ـ في الحقيقة لأ... لقد كنت أطالع الأعمـال الكاملـة لخليل جبران...

انتفض الديب واقفاً قائلا:

ـ خليل جبران؟ هذا الفيلسوف المتصـوف الغريـب الشأن؟

قلت:

ـ نعم وهل هناك عيب في هذا؟

قال وهو يشيح بوجهه ناحية الماشية وهي تسعى:

ـ أبدا لكن حتى الأدب العالمي فيه أشياء أهـم مـن

خليل جبران، جابرييل جارسيا دي ماركيز مثلاً... هو إيه اللي جرى يا أمين؟ إنت عودتنا على التقدم دايماً، مش نرجع لورا نقرأ لشاعر حالم عن الحب والجمال؟

قلت:

ـ عموماً انا حسيت في فترة بالحاجة إلى قراءة هذا اللون من الشعر بدون ما أفكر في ضرورته أو تقدمه.

قال:

ـ ما عليك، المهم خططك المستقبلية إيه؟

ـ أبدا... انا محتار، فيه ناس بتنصحنا نستنى برة، وفيه ناس بتتحفظ في النصيحة.

رد في حزم:

ـ انا لما بسألك عن خططك المستقبلية اقصدها في مصر... السؤال مش وارد حول العودة من عدمه؟

أحسست بشيء ما يغوص داخلي، لملمت أطرافي وقلت:

ـ عندك حق...

كانت الدنيا تميل إلى الظلام... عدنا في طريقنا إلى البيت، استأذنني الديب في ان يعطي الأولاد بعض الدروس،

استأذنت انا ومضيت خلف المندرة أنقب في الأوراق القديمة فتحت الباب القديم، ألفيت مجموعة من الأوراق بخط يدي.. بدت لي غريبة تماماً، رغم ان خطي كان مميـزاً، قرأتهـا بتمعن غير إنها لم تلق صدى، سمعت عواء الذئاب من بعيد يختلط بصوت الوابور وثغاء الغنم الحزين، سعل عـم عبـد السميع جار الديب سعلة قوية، لم يجاف النوم عيني، قمـت على صوت المؤذن لصلاة الفجر أتمشى في حذر على نقاط التقاء الأرض الخضراء الطيبة بالصحراء الصلدة الساخنة.

الفصل العاشر

القــــــرار

حينما تزوجت بإلهام كنت أعرف أنني أحبها،لكني بالطبع لم أكن واعياً بالأسباب اللاشعورية التي دفعتني بالزواج بها، لعلي كنت أتمسك بهذا الجزء من ذاتي المتحفظة المحافظة التقليدية، فالهام ابنة لأسرة عريقة في أسيوط، أسرة كبيرة تضم أحد عشر أخاً وأخت وعدد لا يحصى من الأعمام والأخوال، كانت متمسكة بأداء الفروض الإسلامية دون تعصب، وكانت حريصة على مصريتها بشكل جميل... وحين قصدنا الخليج للعمل فيه، لم نكن ندرك ما نحن قادمون عليه، لكن انشغال الهام في الحمل والولادة منعها من ممارسة الطب فحز هذا في نفسها كثيراً ولما قصدنا بلاد الإنجليز وجدت في ذلك فرصة لا تعوض، غير ان الحمل والولادة مرة أخرى بجانب تعقيدات ظروف السماح للأطباء الأجانب بالعمل وامتحانات الكفاءة المعقدة حالت بيها وبين مهنتها فتحولت إلى ست بيت ببكالوريوس طب، لكنها سرعان ما اندمجت في الحياة الاجتماعية البريطانية، درست في الجامعة المفتوحة بالتليفزيون البريطاني الـ»بي.بي.سي« اشتركت في الجمعيات النسائية واللقاءات التي ينظمها سكان الحي، ولجان الآباء والأمهات

بمدارس الأولاد، كانت لها سيارتها الخاصة وحياتها الخاصة التي تبلورت فيها شخصيتها الجديدة، حتـى أثنـاء غيـابي لحضور المناهج الدراسية المختلفة حرصت الهام على ترتيب من يجلس مع الأولاد لتخرج هي إلى هذه الحفلات، لم تكـن تقرب الخمر، ولم تكن تحب الرقص، لهـذا فلقـد وجـدها الإنجليز غريبة الشأن كانـت الإنجليزيـات يحادثنهـا عـن مغامراتهن العاطفية والجنسـية، وعـن حيـاتهن المـلأى بالصخب، وكانت إلهام تستمع إليهن وتضحك...

لدى عودتنا للمرة الأولى إلى مصر بعد غيبة الثمـاني سنوات لم تخف إلهام ضيقها وتبرمها من أشياء كثيرة أهمها الزحام والذباب والتراب وكذلك معاناة الأولاد المستمرة مـن قرص البراغيث والناموس، وكنت أنا أيضاً أشاركها معاناتها لكن لم اكن مستوعباً لما تريد الهام قوله، حتى عدت في تلك الليلة من عند الديب محمود، دخلت إلى الشقة فوجدتها جالسة في الصالة تشاهد التليفزيون، نظرت إلي في ريبة متسائلة:

ـ إيه ده.. إيه ده اللي عمل فيك كده يا أمين... دانت متعفر تراب خالص... تلاقيك كنت قاعد على الترعـة مـع صاحبك.

رددت محاولاً كتم حنقي:

ـ أيوه، وآديني يا ستي اهو بانفض هدومي...

وما ان انتثر في الهواء بعض التراب، حتـى هاجـت إلهام، صائحة في حدة في وجهي:

ـ خلاص... خلاص بقى... انا مش قادرة استحمل..

كنت فاهماً لما يجري غير أنني تعمـدت ان أتـوارى خلف جهل صمت وأن أتحلى بالصبر... اغتسلت وتوجهـت إلى الشرفة المطلة على أحد شـوارع العاصـمة المزدانـة والمزدحمة، كانت إلهام جالسة تسند مرفقهـا علـى سـور الشرفة وتسند ذقنها على ذراعها محملقة في حركة الناس في بطن الشارع، سحبت الكرسي في هـدوء، جلسـت قبالتهـا وسألتها:

ـ أمال فين الأولاد؟

ردت وهي ما تزال منشغلة بحركة الشارع:

ـ عند أختي هنية...

ـ لحد دلوقتي؟

ـ أيوه هيبيتوا هناك.

ـ ليه؟

ـ علشان المنطقة اللي فيها هنية ساكن فيها المحـافظ وبتترش بالمبيدات لذلك مفيش حشرات هناك... فهمت ليه؟

ـ فهمت يا إلهام، انا مش بتخانق معاك، انا عايز أفهم إنت متضايقة ليه؟

ـ بالعكس انا فرحانة...

ـ صحيح؟

ـ ....

ـ يعني ممكن أتكلم معاك في موضوع مهم؟

التفتت إلي معدلة من جلستها ثم قالت:

ـ اتفضل...

ـ انا بصراحة عايز أكلمك بخصوص المستقبل، انـا قررت بشكل شبه نهائي ان استقر في مصر.

ـ والقرار ده خدته لوحدك؟

ـ لا أبدا، أمال انا هنا ليه؟ وبقولك ليه؟

ـ آه، طب وهاتعمل إيـه فـي وظيفـة المستشـار المعروضة عليك في لندن؟

ـ هاعتذر عنها...

ـ ببساطة كده؟

ـ وليه لأ؟

ـ والأولاد؟

ـ يخشوا مدارس هنا...

ـ فين؟

ـ هنا في مصر

ـ يا سلام... دول يدوبك بيتكلموا عربي، وياحسرة لا بيعرفوا يكتبوه ولا يقروه؟

ـ يتعلموا..

ـ امتى؟

ـ كل حاجة بتاخد وقت وبتبقى صعبة في الأول...

ـ دي مش صعبة، دي مستحيلة... ثم تسمح تقـولي، هاتجيب فلوس خلو العيادة منين؟ واللا سيادتك ناوي تشـتغل في وزارة الصحة؟

ـ شاهندة عندها أوضة فاضية في عيادتها اللي فـي مدينة نصر، هاتديهاني نصف الأسـبوع والنصـف الثـاني هاعمله عيادة شعبية في الهرم... في قرية الديب...

وهنا قامت الهام من كرسيها متنمرة، متحفزة، متأهبة، صعد الدم إلى وجهها وخرجت الكلمات من فمها كالطلقات:

ـ ما هو ده اللي انا كنـت عاملـة حسـابه نتيجـة الزيارات المتكررة للأرياف، إنت فعلاً جرى لعقلك حاجة..

صرخت فيها بعصبية:

ـ لأ... ده انا في كامل وعيي... الظاهر ان إنت اللي اتغيرت يا إلهام، زي ما حاجات كتير قوي اتغيرت.

ـ يا سلام... وإنت... إنت ما تغيرتش، نسيت كلامك عن احلامك في الوصول إلى درجـة مستشـار فـي بـلاد الإنجليز، والبيت اللي اشتريناه بالتقسيط المؤجـل علـى ٢٥ سنة واللي سميته (مصر ٨٠)، ومقالاتـك العلميـة باللغـة الإنجليزية، ومحاضراتك في الجامعة؟ كل المجد ده تيجي في لحظة وتمسحه عشان قعدة على الترعة؟ صحيح انـك لسـه شاعر، لسه يا أمين ما اتخلصتش من احلامـك الرومانسـية الثورية دي... يا أخي، يا أخي ده الواقع حواليك يفقع العـين والمرارة.

قلت في هدوء مصطنع:

ـ بالعكس، انا في قمة الواقعية، وعارف انا بعمل إيه، ولعلمك انا مش هارجع عن قراري.

استمرت في عصبيتها قائلة:

ـ وأنا كما مش هاقبل بالوضع ده، انا هارجع بالأولاد لندن يكملوا مدارسهم، وأنا ها أدور على شغل.

ـ اللي يريحك، بس انا مش هاجي ثاني لندن، حتى في الإجازة...

ـ ماتخافش يا أستاذ هانيجي إحنا..

خرجت من باب الشقة وحلقي يزداد جفافاً وعيني تطفح بالدموع الممرورة، كنت أسير على غير هدى، وجدتني اعرج على بيت صديق قديم، من مجموعتنا القديمة، تخرج من كلية الهندسة، كان مهتماً بالتحليل السياسي إلى أبعد حد وتفرغ له، فألف في العشر سنوات التي لم أره فيها عدداً من الكتب، وتكونت له من أبناء الجيل الذي تلانا مدرسة فكرية، كنت أحبه واحترمه، لكني كنت رافضاً لأستاذيته، خاصة وانه كان يصبغها بملامح الإمارة... طرقت الباب، فتحت لي والدته، سألتها:

ـ الباشمهندس حسيب موجود؟

ردت:

ـ أيوه يا ابني نقول له مين؟

ـ د. أمين جابر...

وما ان سمع صوتي حتى تحرك، ونفذ وقع خطواتـه وصوته إلى أذني:

أهلا أهلا... مش معقول، مش معقول، انا بصـراحة مش مصدق نفسي... ياه ياه... حلم ده واللا علـم، يخـرب بيتك، عشر سنين يا ابن الكلب...

احتضني قائلاً:

ـ إزيك يا ولد...

أبعدته عني ونظرت في عينيه، عرفت ان الوهج قـد اختفى، لكن الأستاذية كانت قابعة على كرسيها، بـل علهـا كانت في أوج عظمتها، قلت:

ـ ولد، ولد إيه يا حسيب ده انا عندي أربع أولاد...

ـ ما شاء ا ... تعال..

أخذني من يدي مرة أخرى في وصاية شديدة، قـادني إلى غرفته الملأى بالكتب المختلفة، قال:

ـ ارتاح...

تركت جسدي يسقط بكل ثقله على المقعـد، ونظـرت إليه، وهو واقف في شموخ، ضوء مصباح القـراءة يسـقط على الأرض، ينعكس على وجهه فيبرز فيه التجاعيد خاصة

تلك التي تحت العينين، تأملته للحظة ثم قلت:

- في الحقيقة انا جاي آخذ رأيك في حاجة مهمة..

- اتفضل، مش نشرب شاي الأول.

- لأ، ماعلهش...

اندهش لرفضي، جلس خلف مكتبه وطالعني من خلال شعاع مصباح القراءة..

قلت:

- إنت عارف إني كنت في لندن ودرست وحصـلت على زمالة الباطنة..

- آه يا سيدي ألف مبروك..

- وقررت العودة لأرض الوطن..

- قرار كويس.

- آه بس فيه مشاكل طبعاً، انا بفكر آخذ أوضه مـع شاهندة نصر في عيادتها نصف الأسبوع والنصـف الثـاني اعمله عيادة شعبية في الكرداسة.

- طب ليه؟ ده إنت يعني حظك من السما، انـا لسـه مخاص مراجعة تصميم عاملينه مجموعة زمايلنا لمستشـفى حديث هايتكلف ٣ مليون دولار، ويا سيدي مـش هـانلاقي

احسن منك يمسك قسم الباطنة؟

ـ في الحقيقة إنت فاجأتني، لكن مشروع زي ده حلّني لما يتبني أو يتنفذ...

ـ لا أبدا، ده تخيلك؛ اللي بطيء يا ولـد، طالمـا ان الفلوس موجودة كل شيء يتنفذ هوا..

ـ طب وعلى فرض ان انا وافقت، من دلوقتي لحد ما تتبنى مستشفاكم هاشتغل فين؟

ـ طبعاً تروح لندن تاني، على الأقل نبقى نكتب فـي الجرايد ان إحنا هانجيبك من هناك..

ـ لأ.. انا مش مستعد تحت أي ظرف من الظـروف ارجع تاني، يبدو انك مش مختلف عن مراتي، مستشار فـي بريطانيا، زي رئيس قسم باطنة في مستشفى بـ ٣ مليـون دولار في مصر، انا لا يمكن أوافق على مشروع زي ده.

ـ وا ماحدش هايغصبك يا أمين... عقلك في رأسك تعرف خلاصك ودي فرصة العمر...

شكرت حسيب، استأذنته، مضيت إلى منزل والـدي، طرقت الباب، فتح لي أبى متهللاً قائلاً:

ـ أهلا... أهلا يا أمين كويس انك جيت، إحنا كنا في

سيرتك..

دخلت حجرة الصالون، وجدت أخي الأكبـر.. أمـي، وبعض الأقارب، سألني أبي:

ـ إنما إنت عملت إيه في موضوع الجنسية البريطانية يا أمين؟ مش خدتها برضه؟

ـ في الحقيقة لأ... ومش ناوي حتى آخذها..

ـ ا .. ليه.. ده حتى من نعم ربنا علينا ان إحنا بلـد بسمح بازدواج الجنسية.

ـ ما انا عارف بس انا أخذت هذا القرار بيني وبـين نفسي..

خرج أخي الأكبر يترهل في جلبابه الفضفاض قـائلاً بصوت خشن:

ـ جرى إيه يا دكتور؟ دا الباسبورت البريطاني يفـتح أبواب عكا، يسهل لك الفيزا والتحويلات ويمشي أمور كثيرة.

توجهت إلى أحد مقاعد الصـالون، أرخيـت جسـدي عليه، وقلت في هدوء:"

ـ انا مش مسـتعد أنـاقش الموضـوع ده تـاني.. الموضوع انتهى خلاص..

مصمص الجميع شفاههم ونظروا إلـي فـي غرابـة ودهشة كما لو كنت مجنوناً... تبادلت معهم النظر وتابعـت حديثي في هدوء:

ـ انا في الحقيقة جاي أبلغكم بأني قررت الاسـتقرار في مصر..

ضحك أبي وقال:

ـ صحيح إحنا عايزينك بيننا وسطينا لكن برضه مش عايزينك تتألم أو تتصدم وتلعن اختيارك... الحياة هنا صعبة قوي قوي يا أمين... كل شيء صعب..

تدخل أخي الأكبر متسائلاً:

ـ إنما ماقلتلناش هاتشتغل فين بإذن ا ؟

ـ انا هاشتغل نصف الأسبوع في عيادة مع دكتـورة زميلتي هاخد منها أوضة والنصف التـاني هاعملـه عيـادة شعبية في قرية صديقي محمود الديب.

رفع أخي يديه في الهواء صائحاً:

ـ ا ا ا ... أستاذ ومستشار بريطاني ويشارك في عيادات... ويعمل عيادات شعبية في الريـف... تهـريج ده واللا إيه... من ألف لمليون يا دكتور وآخذ لك أفخم عيـادة

في وسط البلد... ابني لك مستشفى... جرى إيه يا دكتور..

أطرقت برأسي محاولاً فهم ما يحدث... صمت هنيهة ثم وجهت حديثي إلى أمي:

ـ تفتكري يا أمي أعيش وأموت في بـلاد الإنجليـز؟ تفتكري يعني مصر تبقى محطة اقضي فيها إجازتي؟

مسحت أمي دمعة من على خدها.. نظرت إلي وقالت:

ـ يا باني فراقك صعب علينا قوي... انـا بصـراحة عايزاك جنبنا... لكن يا ترى إيه رأي مراتك؟

ـ هي محكمة رأيها الولاد يتربوا هناك ومش عاجباها العيشة هنا... لذلك انا هاسيبها براحتها..

نهضت أمي من جلستها متفزعة صائحة في وجهي:

ـ يا عيب الشوم يا أمين... تسـيب مراتـك وولادك يعيشوا لوحدهم في بلاد الغربة؟...

الفصل الحادي عشر

الخاتمـــــة

يعني اعمل إيه يا ماما؟ طالما هي مش معتبراها غربة؟

تدخل أبى محتداً:

ـ ده وضع ماحدش يرضى بيه... انا من رأيي انـك ترجع بريطانيا مع مراتك وأولادك.. تاخد وظيفة المستشـار دي وتبني مستقبلك هناك... يعني هو إنت اقل مـن مجـدي يعقوب أو فاروق الباز؟

قمت من مقعدي وصرخت في الجميع محتداً:

ـ فاروق الباز إيه ومجدي يعقوب إيه... مهما كانـت عبقريتهم فهي عبقرية مطفأة بلا معنى... تخـدم الإنجليـز وأولادهم.. مجد من غير طعم وشهرة بلا لون... انا شـايف ان مفيش فايدة من المناقشة.. عن إذنكم..

خرجت مسرعاً من باب الشقة... ثم من باب العمارة.. مضيت إلى موقف الأتوبيس متجهماً إلى قرية الديب محمود اعصر كفاي... امسح عرقي... وأحـاول ان أهـدئ مـن روعي... قررت ان اركب تاكسي بالنفر... عزم علي أحـد الفلاحين المسافرين بسيجارة.. اعتذرت سألني آخر عن البلد

التي قدمت منها.. قلت:

- مصر.

ضحك ركاب التاكسي قائلين:

- ما إحنا كلنا من مصر يا أستاذ.. النفر يقصد من أي كفر..

تنبهت إلى التعليق... نظرت إلى وجه الفلاح المليء بالتجاعيد وقلت:

- انا في الحقيقة مولود في القاهرة وعيلتي في بنها... وولادي ومراتي في لندن وأنا رايح استقر في الكرداسة بالهرم.

ضجوا بالضحك.. وعقب سائق التاكسي قائلاً

- الظاهر الأستاذ زي ما بيقولوا.. انترناشيونال؟

غطى صوت محرك السيارة على أصوات الجميع.. خلدنا إلى نوم عميق لم نستيقظ منه إلا ونحن في الكرداسة.

***

ساعدني الديب محمود على الحصول على بيت صغير... خصصت الدور العلوي منه للسكنى... والسفلي للعيادة..

كان علي ان أتأقلم... ما في ذلك شك... بـدءاً مـن صرف النظر عن إفطار رقائق الذرة (الكورن فليكس) إلـى تناول الفول والبيض واتبعهما بالشاي السادة الثقيـل... فـي البداية اضطربت وظائف أعضائي... لكني في ظرف أسبوع تعودت على كل شيء... أدركت ان العلم الكثير الذي تعلمته والشهادة الكبيرة التي حصلت عليها يسـتندان علـى نتـائج الأبحاث ويستمدان بريقهما من معامل ومختبرات التكنولوجيا الحديثة التي تدقق في مكونات الدم وتحلل في ثـوان خلايـا الجسم وتمسح أعضاءه مسحاً شاملاً... وأنا هنا بلا إمكانيات البتة... حاولت ان ابذل مجهوداً ضخماً في تعـويض هـذا النقص التكنولوجي الخطير... مرة باستخدام وسائل مبسـطة مثل شرائط ورقية خاصة توضع في البـول فتحـدد نسـبة السكر... ووريقات ماصة تضع عليها نقطة الدم فتحدد نسبة الهيموجلوبين به.. كانت طرقاً بدائية وغير دقيقة... لكن.. ما كان هذا بالأمر الصعب.. المشكلة كانت في إحساسي العاجز بأن ما أتعامل معه من أمراض هو شيء مختلف تماماً فـي جوهره ومظهره عن أمراض الإنجليـز... فالنـاس نـاس والإنسان إنسان.. لكن سوء التغذية وسوء التهويـة.. الجـو

العام... طبيعة العمل... طرق الري... المنـاخ.. الهمـوم.. الزواج... العادات... التقاليد.. كل هذا شكل عجينة غريبـة علي... حقاً... رواسب ذكرى عملي الأول بعد التخرج كانت تبرز بين الحين والآخر... لكنها كانت باهتـة... عـاجزة.. وبلا معنى..

في أحد الأمسيات توجهت إلى بيت صـديقي الـديب محمود.. سألته:

- يا ترى إيه رأي أهل البلد في العيادة؟

- وده عايزه كلام؟

يعني إيه؟

- يعني مبسوطين خالص.

- مبسوطين من إيه؟ إوعى تكون فـاكرني بقـدملك قصة قصيرة وباطلب رأيك فيها؟

- إيه الكلام اللي بتقوله ده... أهل البلد سعداء بالخدمة اللي بتقدمها... كفاية ان فيه رعاية.. إنسان بيسـمع لهـم.. بينصحهم... انا عارف انك مكبل بنقص الإمكانيات...

- ده انا مش مكبل وبس... ده انـا محـبط ومتـألم وعاجز.. على سبيل المثال لا الحصر.. الأدوية الحيوية فيها

نقص شديد.

ـ دي مشكلة قديمة..

ـ لأ... وبصراحة كمان... موضوع العادات والتقاليد هام جداً... كذلك عدم الحذر من اتباع النظم الغذائية.

ـ مافكرتش يا دكتور تناقش مع نفسك أسباب تخلفنا؟

ـ فكرت كتير قوي... وتقريباً عارفها.. بس ماعنديش حل..

ـ والنتيجة انك تكتئب وتحزن... عارف المثل الشعبي اللي بيقول (العرجة تغزل برجل حمار)..

ـ وفين هي رجل الحمار؟

ـ ياه... للدرجة دي مش قادر تبص حواليك؟

ـ مش القصد يا ديب... انا بحاول أتصالح مع نفسي.

ـ ده مستحيل... لازم يكون فيه صـراع... نفسـي واجتماعي وسياسي كمان..

ربت على ظهره قائلاً:

ـ ولا يهمك.. تعال نتمشى إلى حديقة الليمون..

مضينا متجاورين نمشي حذاء حافة الترعـة... نلقـي السلام للرائح والغادي... كان أبو عبد ا يخوض في الترعة

يسقي أرضه.. كنت اعرف انه مريض بالبلهارسيا... ويعالج منها. كان عبد التواب يجري وراء الماشية لاهثاً رغم أنني حذرته من المجهود لأنه مصاب بالتهاب شعبي مزمن... رأيت النسوة يحملن الجرار.. يحلبن البقر ويغنين للقمر... رأيت الأولاد والبنات الصغر يلتقطون لطع الدودة من القطن ويغنون في سعادة... كان العمدة الضخم الجثة يمتطي حماره... ساقاه متدليتان يهزهما في عصبية... يتحلقه حوالي خمسة رجال... عند الجمعية التعاونية كان هناك حشد كبير من الناس في انتظار البذور والسماد.. وفي الساحة الكبيرة المنبسطة أمام المعية وقف سمعان أفندي يتقاضى الأجر لقاء قفزات ثوره الضخم على إناث البقر العجفاء.. . همس الديب محمود في أذني:

- سمعان أفندي راجل غني استورد الثور من هولندا... وبيحاسب على عشرة جنيه مرة واحدة للقفزة..

نظرت إليه متأملاً ومتسائلاً:

- طيب وافرض ان البقرة لم تحبل؟

ضحك الديب محمود عالياً... نفث دخان سيجارته وقال:

ـ برضه هياخد العشرة جنيه... هو غير مسئول عن الحبل... هو مسئول عن القفز فقط...

همهمت متعجباً... مضينا نحن الإثنين إلى نقطا التقاء الأرض الخضراء الطيبة بالصحراء الساخنة القاسية... كانت هناك دودة صغيرة تزحف.. تحاول الهروب مـن سـخونة الصحراء إلى الأرض الخضراء... فغطتهـا تلـك الأرض بالمياه... والطمي... والمبيدات الحشرية...

انتهت